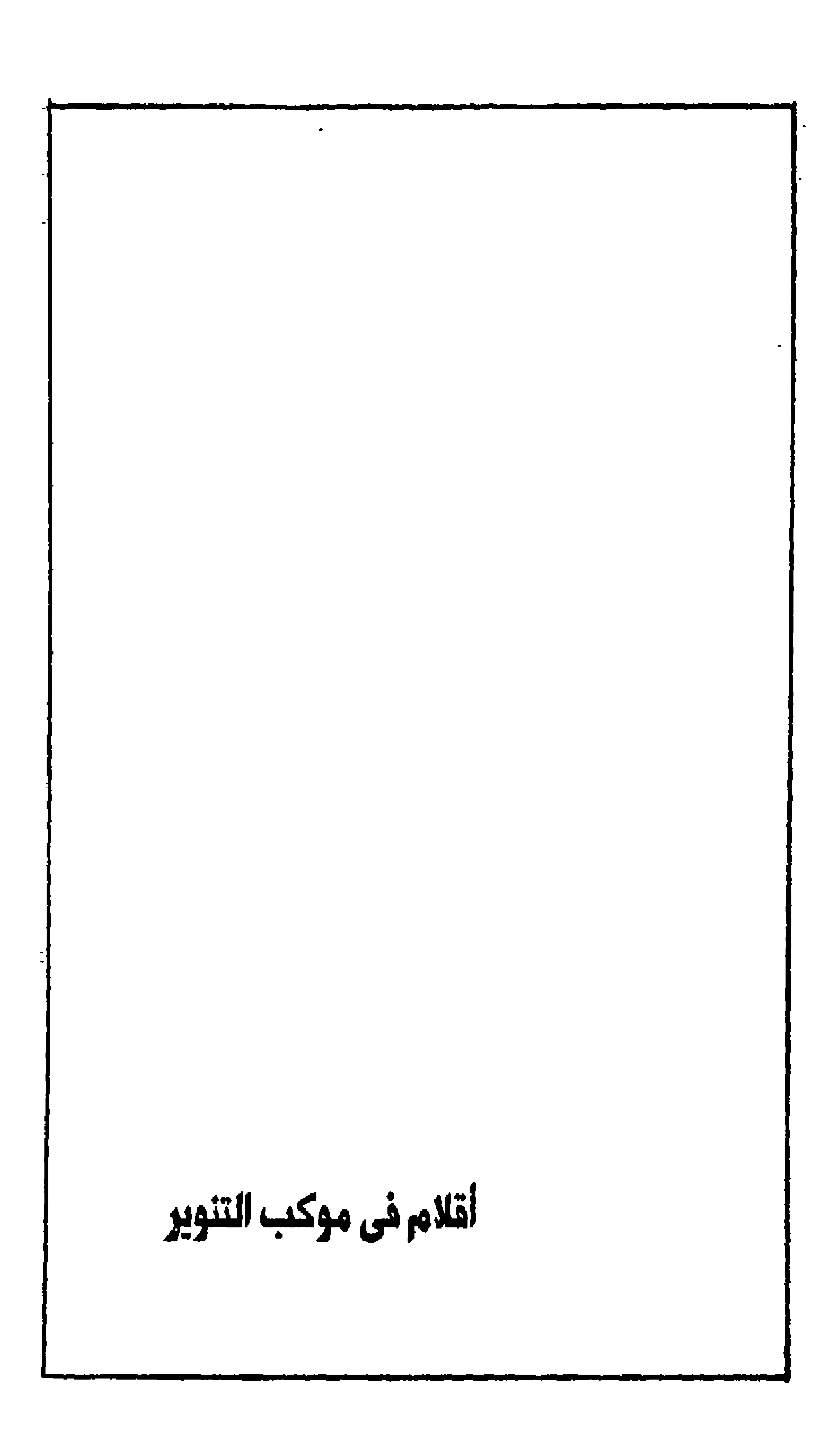

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
التنوير
أقلام في موكب التنوير
عبد العال الحمامصي
مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب



أقلام في موكب التنوير



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(التنوير)

اقلام فى موكب التنوير
عبدالعال الحمامصى

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام
د. سمير سرحان

أقلام فى موكب التنوير

عبدالعال الحمامصى

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية.

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

مقدمـــة الكتـــاب

من هنا تبدأ الخطوة الأساسية للتنوير ودحر الانغلاق

أعرف منذ البداية ٠٠ أن ظاهرة الارهاب الاجرامى المصحوبة بذرائع فكرية مغلقة ومشوهة وجاهلة ٠٠ هــذه الظــاهرة التى استشرت فى غفلة من الوعى ٠٠ ثم انحسرت بفضـــل فاعلية الأمن واكتسابه لخبرات كانت غائبة عن أساليب الممارسة الأمنية ، وكذلك بفضل الشعب وطلائعه المثقفة التى فضحت تهافت المنطلقات الفكرية التى تقف وراء الارهاب وتدفعه لتدمير حضـــارة هذا الوطن ٠٠ ووقف الشعب المصرى بكل احساسه الحضارى رافضا لهذا الارهاب ومقولاته ومقاوما أيضا لانداحه تمهيدا للخراب ٠

أعرف أن هذه الظاهرة وليدة عوامل متعددة ومتشابكة ٠٠ من الخطورة تجاهلها ٠ ونحن نسعى لامتلاك مستقبل يتيح لنا ان نكون فى قلب العصر ٠٠ وليس على هامشه ، أعرف هــذا كله ولكنى أبدا لن أتنازل عن اعتقادى الواثق بأن غياب الثقافة الحقيقية وغياب أدب التنوير بجــانب غلو سعر الكتــاب وانحســاروجوده فى ساحة القدرة الشرائية لأرباب الأسر ٠ والطلبة والمتعلمين ممن ابتعدوا مرغمين عن ساحة القراءة بتكاليفها الباهظة وغدا ما تصدره دور النشر فى مصر غير موجه الى القارىء المصرى فى الحقيقة ٠٠ ومن هنا أصبحت الساحة خالية لممارسات الفكر الارهابى ومقولاته التى وجدت بين الشباب عقولا خاوية ملأتها بالأباطيل بدون أن تجد مقاومة واعية ٠٠ أو دحضا مسلحا برحابة الثقافــة واستنارتها

وقدرتها على كشف الصحيح من الزائف والحقيقى من المموه والمغشوش ، وبهذا أصبحت بعض الأدمغة آنية فارغة جاهزة صب فيها المشوهون والمعقدون ركام خزعبلاتهم !

ولهذا ناديت كثيرا بأنه من المهم ان تتصدى كافة الوسائل المتاحة لانهاء ظاهرة الارهاب وخطرها المتعدد الجوانب ، ولكن الأهم الانتباه الجدى للعوامل التى أفرزتها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ·· ومن أهمها الانغلاق الفكرى الذى ترتب على تقلص الثقافة عن ساحة المجتمع بكل طولها وعرضها ·· وفى المدرسة بشكل خاص ·· ولهذا ناديت بأن تلقى الدولة بكل ثقلها وراء عملية الثقافة ، وأن تجعلها متاحة للجميع رغم الخسارة المادية المؤكدة مرحليا ، لأن العائد سيكون أفضل بكل المقاييس لأن الثقافة هى التى تعطينا المواطن الحقيقى انتاجا وسلوكا ·· وأنها هى التى تحصن المواطن وتجعله منيعا اما فكر الانحراف والانغلاق ·

ويقتضى الانصاف الاعتراف بأن الدولة قد قامت بمبادرات مشكورة فى مجال التيسير الثقافى لا يمكن انكارها ·· والطريق ما زال طويلا !!

وتأسيسا على هذا فان الانصاف يقتضى الاشادة والامتنان لهذا الجهد الحيوى الذى تبذله السيدة الجليلة الموقرة سوزان مبارك فى هذا المجال ·· ولقد كان من ثمار مشروعها القومى المتعدد الجوانب فى مجال الطفولة والثقافة وانشاء المكتبات واكتشاف المواهب وتشجيع القراءة واتاحة وسائلها ·· كان من ثمار هذا المشروع مهرجان القراءة للجميع بما أشاعه من مناخ يؤصل احترام الثقافة ·· والذى انبثقت عنه مؤخرا مبادرة حيوية هى مكتبة الأسرة بشقيها الفكرى والابداعى والتى احتوت مجموعة من أمهات الكتب العربية والعالمية بأسعار تقل كثيرا عن ثمن تذكرة الأتوبيس ، وقد رأيت بعينى طوابير الشباب امام مكتبات هيئة الكتاب توقا

لاقتنائها ·· وهذا يؤكد تعطش الشباب للقراءة اذا أتحنا له هذه القراءة بما يلائم امكاناته ·· ولهذا آمل ان يواصل هذا المشروع الحضارى دوره باضطراد لا تهاون فيه ·· ومن هنا يمكن القضاء على البؤر التى يفرخ فيها الارهاب ·

وفى هذا المجال لا يفوتنى أن أذكر بأن الكتيبات العديدة التى صدرت فى هذه السلسلة والتى اعتمدت على تلخيص بعض أمهات الأسفار والابداعات ·· وهذا من شأنه ان يكون مدخلا لناشئة للتعامل مع ضروب المعرفة والالمام والسعى بعد ذلك لقراءة هذه الكتب كاملة ·· وأتمنى ان تضطلع هيئة الكتاب والجهات التى ساهمت فى المشروع باصدار هذه الكتب الحيوية فى طبعات مكتملة وبأسعار تكون فى متناول الجميع ·

وأخيرا ·· تحية صادقة للسيدة سوزان مبارك لروحها الوطنية المتوقدة التى مكنتها من اختيار الطريق الصحيح للعمل الوطنى الحقيقى ·· وتحية لوزارة الثقافة وهيئة الكتاب وجمعية الرعاية المتكاملة ووزارة الاعلام ووزارة التعليم ووزارة الحكم المحلى والمجلس الأعلى للشباب والرياضة ·· واتمنى أن يظل هذا التعاون والتبارز من أجل الثقافة قائما فى كل الظروف ·· حتى يتمكن الشعب من خلال ثقافة جادة فى متناوله أن يهزم التخلف وأن يقاوم التردى ·· وأن يتجه نحو المستقبل ·· وتحية لكل من يحاول أن يغرس شجرة خير ·· أو أن يبعد شوكة أذى !!

رائد التنوير
رفاعة الطهطاوى
أزهرى فى باريس وعيناه على مصر !

يرى عبد الرحمن الرافعى أن مقياس نجاح أى ثورة أو اخفاقها يتمثل فى تعرف الحالة التى كانت عليها البلاد قبل الثورة والحالة التى وصلت اليها بعدها ·· وهل تقدمت أو تأخرت وما علاقة الثورة بهذا التقدم والتأخر ·· واذا كان هذا يصدق مقياسا لأى حركة أو انتفاضة أو ثورة جماعية ·· فانه يصدق أيضا مقياسا لتقييم دور الأفرا الأفذاذ الذين أحدثوا انعطافة فى مجرى حياة الأمة فى المجالات التى برزوا فيها ·· ويمكننا أن نستعير التعبير السابق فى تقييمنا لدور رفاعة رافع الطهطاوى رائد النهضة المصرية الحديثة والذى حلت هذا الشهر الذكرى الثالثة بعد المائة لرحيله عن دنيانا !

تتبدى لنا عظمة الدور الذى قام به رفاعة على مسرح المجتمع المصرى عندما نتأمل وضع مصر قبل أن يتصدى للقيام بدوره ·· ها نحن نجدها تغط فى سبات عميق · وتتخلف بنشر ضبابه على كل مناصى الواقع المصرى ·· فقد استطاع الاستعمار التركى بجانب الحكم المملوكى بفرط جهله وجهالته أن يفصل مصر عن ايقاع العصر وأيضا عن تراثها وتاريخها · وحولها الى كيان يقتات أتفه موروثاته ·· ونحن لا نجد تعبيرا عن هذا الوضع أكثر مما حدث من رفاعة ذاته خلال وجوده فى باريس ·· فعندما شاهد عربة رش الشوارع انطلق يصلى لله ركعتين ضارعا اليه أن يرزق مصر هذه

كتب الموضوع فى مناسبة مرور مائة سنة على رحيله .

الوسيلة لتنظيف شوارعها من القاذورات والأتربة .. ألا يعطينا صنيعه هذا دلالة على ما كانت عليه مصر فى عهد محمد على .. وهو عهد يتسم بالاستنارة .. فما بالك بعهود ولاة الأتراك وأمراء المماليك ! ظاهرة رفاعة لايمكن أن تنفصل عن كونها التعبير الطبيعى عن شخصية مصر ذاتها .. فبرغم ما يحيط احيانا بهذا البلد من قهر يغرقه فى بحار الجهل .. فهو برغم ذلك يحتفظ تحت السطح وفى أعماق وجدانه بخصائص أصالته .. وأصالة مكوناته .. وما أن تتاح له الفرصة فى المناخ الطيب وتواتيه البذور الصالحة والأسمدة الموافقة . حتى تفجر تربته أجمل ينابيعه ويعطى اشهى ثماره .. هكذا كان منذ تعاقب مراحل التاريخ عليه .

فبعد ثلاثة قرون متواصلة فصلت فيها مصر عن قافلة المسيرة الحضارية العالمية استطاع هذا الرجل بالقنوات التى أقامها بين مصر وبين العصر .. أن يهز ركود المجتمع المصرى بعدما أتيحت له رحلة الى باريس كامام لأول بعثة مصرية أوفدها محمد على الى فرنسا لمعرفة ما لدى الغير بعد أن أحدثت الحملة الفرنسية هزة فى المجتمع المصرى لما جاءت به من غرائب أدهشته وأذهلته .. واستطاع هذا الصعيدى الذى رأى نور الحياة فى طهطا عام ١٨٠١ وهو العام الذى رحلت فيه الحملة الفرنسية عن مصر مقهورة . استطاع أن يستخلص من فرنسا أجمل ما فيها ليخصب به تربة مصر .. وبعد أن نضجت أفكاره تحول من مجرد الناقل والمترجم والمتأثر وأضاف من ذات نفسه ليبدع فى مجالات متعددة اجتماعية وثقافية وعلمية . وأحدث بها انعطافة عظمى نقلت مصر من ألواح الكتاتيب الى معامل الجامعة العلمية العصرية فبعد كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » والذى كان تعبيرا عن مرحلة الاعتراف والنقل والتأثر . انطلق الى مرحلة الخلق فقدم لنا عديدا من المؤلفات .

وتمكن بهذه المعطيات أن يحدث تيارا متدفقا للتأثير فى أفكار جيلين بعده ٠٠ حملا الشعلة الى آفاق أبعد مدى ٠ واكثر تأصيلا ٠

عاشـــق مصـــر

اول ما يتبدى لنا من شخصية رفاعة هو حبه لمصر هذا الحب الذى يصـــل الى حد الوله والعشق والعبـــادة لقد حرص على مصريته وتأصيلها فى مواجهة عنصر تركى متعصب يعتبر المصرى مجرد فلاح وكانت الكلمة مسبة يقذفونها كعار فى وجه كل مصرى ٠٠ أليس احساسه بمصر هو الذى دفعه عندما تولى الاشراف على صحيفة الوقائع المصريـــة أن يجعل اللغة العربيـــة هى صاحبـــة السيادة على مواد تحريرها بعد ان كانت تأتى فى المؤخرة ٠

أليس هو القائل عن مصر فى زهو يصـــل الى حد التفاخر ٠ وفى حب يصل الى مرتبة التصوف « ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف ٠ ان لم نقل انها اشرف الأمكنة ٠ فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث ٠ فكأنها جنة الخلد منقوشة فى عرض الأرض ٠ بيد الحكمة الالهية التى جمعت محاســـن الدنيا فيها ٠ حتى تكاد ان تكون صورتها فى أرجائها ونواحيها بلدة معشـــوقة السنى رحبة المثوى » الا يدل هذا على أنه الرائد الأول للقومية المصرية ٠٠ وأن كلماته كانت الارهاص بميلاد هذه القومية واختمار بذرتها ٠

أليس دليل عشقه لمصر أنه لم ينظر لتاريخها نظرة منفصـــلة او جزئية بل نظرة شمولية ٠ وعندما أخذ يؤلف فى التاريخ لم يبدأ كما هو المتبع لدى غيره بالفتح العربى بل بدأ بتاريخ مصر منذ الفراعنة والبطالمـــة والرومان ٠٠ وكان صنيعه هـــذا بداية لمرحلة جديدة من مراحـــل تقييم التاريخ المصرى القـــديم ٠٠ فقد كان المؤرخون فى مراحل قبله اذا تعرضـــوا للتاريخ المصرى بخسوه حقه ٠٠ كما يقول الدكتور جمال الدين الشيال ٠٠ لا بسوء نية بل لأنهم كانوا يجهلونه أساسا ٠٠ لأن ضياع أصول اللغة المصرية

القديمة قبل اكتشاف حجر رشيد ٠٠ كان يجعل هؤلاء المؤرخين يفسرون هـذا التاريخ بما يعن لهم من خيالات ٠٠ حتى انهم كانوا يصفون النقوش الموجودة على الآثار المصرية بأنها « مكتوبة بالقلم المجهول » ٠

قلنا عن مصر أنها البلد الذى يحتفظ بخصـائص اصالته تحت السطح حتى تتاح له الفرصـة المواتية لتفجير عبقريته ٠٠ وها نحن أولا نجد رفاعة يفطن الى هذه الحقيقة قبل أن يكتشفها الفكر المعاصر ٠٠ والا فما معنى عباراته التالية :

« فما اختصت به مصر بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تنطفىء وتشرق شمس بهجتها ثم تختفى فكأن نورها شىء ما كان ٠ ولالمع ضوؤها فى زمن من الأزمان ٠ وأما مصر فأغرب شىء من بقاء شمس سعدها وارتقاء كوكب مجدها أنها بقيت سبعين قرنا حافظة لمرتبتها العليا ٠ لها اليد البيضاء والسلطة المعنويـة على سائر ممالك الدنيا » ٠

وأى ادراك لخصائص الذاتية المصرية أرهف من هـذا الادراك المتمثل فى قوله :

« ان الأمة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للأغراب » وربما كانت الجملة تعبيرا عن احتجاج على حكم أسرة محمد على الدخيلة القادمة من وراء الحدود أصـلا وربما كانت تعبيرا عن سخطه تجـاه الامتيازات الأجنبية التى لم يكن قد استفحل خطرها عندما اعترض على القوانين الأوروبية التى كانت تحكم بها المجـالس المختلطة فى شأن المعاملات المصرية الأجنبية وأكد بأن فى الفقه الاسلامى ما يغنى عن هذه القوانين ٠ ألا يقول عن مصر فى مواجهة العنجهية الأجنبية تركية وافرنجية « أم الحضـارات ولم تسبقها أمة فى ميدان المدنية ٠ ولا فى حرفة تقنين القوانين وتشريع الأحكام المدنية ٠ ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة ولا ملة ولا أنكرت الاستضاءة بنور نبراسها مملكة عظيمة ولا دولة » ٠

الأزهرى عندما يكون عبقريا !

لقد كانت حركة الترجمة أصيلة فى الأمة العربية ·· منذ تدافعت الثقافة الاسلامية خصوصا فى العصر العباسى للحوار مع الثقافات الأخرى لتقيم اتصالا يستهدف الأخذ والعطاء ·· ولكن الدكتور محمد خلف الله أحمد يضع أمامنا ملاحظة قيمة ، فقد كان المترجمون العرب يتجهون شطر الفلسفة والمنطق والرياضة والفلك والطب والجغرافيا ·· أما الآداب والفنون من شعر وتاريخ ودراما فأكمل نقص حركة الترجمة بترجمته الآداب الفرنسية مثل وقائع تليماك · والميثولوجيا وأساطير اليونان ·· وكان بهذا يؤكد فهمه العميق بأن المعارف الانسانية كل لا يتجزأ ·· واذا كانت الفائدة محققة فى معرفة العلوم ·· فانها تكون أعمق جدوى بتذوق الفنون ·· الا تعطينا ترجمته لنشيد « المارسيلييز » نشيد الثورة الفرنسية مؤشرا بأنه كان يستهدف ايقاظ الوعى الوطنى ودفع مصر لتنتفض على الحكم الاستبدادى المطلق · وبهذا يمكننا أن نقول ان الترجمة عنده كانت مخططة ومحسوبة وتستهدف أساسا مصلحة مصر ·· وظهر هذا فيما قامت بترجمته مدرسة الألسن التى أنشأها ١٨٣٤ وأشرف عليها ·· لقد وجه أساتذتها وطلبتها الى ترجمة ما كانت مصر فى حاجة اليه لتحقق نهضتها ·

الصعيدى ·· فى باريس ·

اذا كان رفاعه شخصية متفتحة تمكنت من استيعاب ايقاع عصرها والنفاذ الى أغواره فان هذا لم يسلبه أصالته ولم يسلخه عن أصوله ·· يتبدى هذا فى تمسكه بقيم أزهريته وقيم بيئته الصعيدية ·· لقد رأى نور الحياة فى طهطا فى بيئة ذات عراقة دينية اسلامية ، ولق ظل على الدوام مخلصا لطهطا وطنه الصغير ·· فلا القاهرة بليونة عيشها ولا باريس بفتنتها واغرائها استطاعت أن تقتلعه من جذوره أو تنال من الحب المتأصل فى أعماقه لهذه البلدة النائية ·

خاصية فريدة يتميز بها أبنا مصر . فالواحد منهم يأتى من قرية ربما كانت قاحلة وربما هربا من الضائقة .. ويستطيع أن يحقق مكانة فى المجتمع وبسطة فى الرزق ومع ذلك تظل قريتـه فى وجدانه أجمل البقاع وأنضر الأمكنة .. وأحلى المواطن ! ولقد ظل رفاعة فى باريس مخلصـا لأزهريته .. استوعب كل جديد ولكنه لم يخلع ثيابه الأزهرية ولم يتنكر لعمامته .. ولم يقف من الجديد والمغاير موقف المبهور المخـدر يمكن استلابه واقتلاعه من أصوله.. فقد كانت لديه ثقافة اسلامية عربية تحميه من أن ينساق فى اندفاع. وتدفعه أن يقف من كل جديد موقف الناقد المحص .. يأخذ ما يراه كفلا بتحقيق الفائدة . وينقد ما يجده متنافيا مع العرف ومع قيم الثقافة الاسلامية . لقد تولاه من قبل شيخه المستنير « الشيخ العطار » وغداه بالثقافة التراثيـة الأصيلة ثم طعمـه بالثقافات المعاصرة ما اتيح للشيخ منها .. ورغم الاغراء الذى تشكله مدينة متحررة مثل باريس بالنسبة لمصرى صعيدى لم ير المرأة الا محجبة.. فقد وجدنا رفاعـة متمسـكا بدينه وعفافه .. بطهـارة روحـه وجسده .. فها نحن أولاء نراه يكتب لزوجته خطابا من هنـاك يؤكد فيه بأنه قائم على عهد الزوجيـة ولن يفرط فيه أبدا .. ورغم أنه دخل بيوت أكابر الفرنسيين وتردد على محافلهم وأنديتهم كمـا يدل علي ذلك كتابه « تخليص الابريز » ورغم أنه أشاد بالمرأة الفرنسية وفرط جمالها وزينها .. الا أن امرأة واحدة لم تستطع أن توقعه فى براثنها .

لقد أعطته ثقافته الأزهرية القدرة على البحث وراء الظواهر وربط الأسباب بمسبباتها وعصمته من الانسياق لكل جديد بدون موقف منه سـواء بالقبول أو الاعتراض لقد بهره المسرح مثلا كفن غير معروف فى الشرق ولكنه يعترض على ما يراه فيه من اباحـة فى بعض المشاهد أو المواقف فيقول : « ولو لم يشتمل التياترو فى فرنسا على النزعات الشيطانيـة لكانت (السبكتاكل) تعد من الفضائل العظيمة الفائدة »

وعندما ينتقد الرقص الذى يقتضى تلامس المرأة والرجل نجده فى نقده مهذب العبارة « وقد يقع أن من الرقص رقصـــة مخصوصة يرقص الانسان ويده فى خاصرة من ترقص معه ٠ وأغلب الأوقات يمسك بيدها وبالجملة فمس المرأة أيا ما كانت فى الجهة العليـا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى » ٠

ومهما يكن من استنكاره لهذا واعتباره بدعة فهو يقول فى انصاف وفهم « وظهر أن الرقص والمصارعة يقع معهما شىء يعرف بالتأمل ٠٠ ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من اللياقة لا الفسق ٠ فلذلك كان دائما خارجا عن قوانين الحياء ٠٠ خلاف الرقص فى أرض مصر فانه من خصـــوصات النساء ٠٠٠٠ أما فى باريس فانه لا يشم منه العهر أبدا » ٠

أليس هذا ما قاله سلامه موسى فى تنديده برقص هز البطن والفجور واستعراض القدرة على اثارة الغرائز ٠

رفاعـــة ٠٠ وفائض القيمـــة !

ووسط انغماس رفاعة فى الاصـــلاح وتطوير التعليم والانكباب على الترجمة والتأليف ٠٠ نجده لا يفقد هـــذا فيما كتبه منددا بجشـــع الملاك وسوء حال العمال الزراعيين والحرفيين الذين يعملون بالزراعة حيث يقول فى كتابه « مناهج الألباب » : « ثم ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية ٠ المجتنى لفوائد هـــذه الاصلاحات الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية ٠ والمحتكر لمحصولاتها الايرادية ٠ انما هم طائفـــة الملاك ٠ فهم دون أهل الحرفة الزراعية يتمتعون بأعظم مزية ٠ فأرباب الأرض والمزارع هم المغتنمون لنتائجها ٠ والمتحصلون على فوائدها ٠ حتى لا يكاد يكون لغيرهم شىء من محصـــولاتها له وقع ٠ فلا يعطون للأهـــالى الا بقدر الخدمة والعمل ٠ وعلى حسب ما تسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة ٠ يعنى أن الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصـــل على العمل ٠

ولا تدفع فى نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذى لا يكافىء العمل · فما يصــل الى العمال فى نظير عملهم فى المزارع أو الى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها هو شىء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد الى الملاك » ·

اليس هذا ما يؤكد فهمه لنظرية فائض القيمــة فى الاقتصــاد قبل أن تشيع فى الشرق ·· وقبل أن تعرف الاشتراكية بمعناها المعاصر ·· ثم ألا نجده يدعو لأن تشارك الحكومة أصحاب رؤوس الأموال فى المشاريع البناءة ·· ويشرح بأن هــذا ســيؤدى الى تشغيل العمالة الفائضة من الأرض الزراعيــة · مما ينتج عنه زيادة القدرة الشرائية لدى الأفراد « فيحدث حال من الرواج فى البــلد عمومــا » ·

ألم يتحدث فى « تخليص الابريز » عن تأصيل فكرة العدل « وقد يوجد بها ـــ باريس ـــ من أهــالى الحرف الدنيئة من ايراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك · وذلك من كمال العدل عندهم · فهو المعول عليــه فى أصول سياستهم · فلا تطول عندهم ولايــة ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار ! » ·

ما أكثر ما يمكن أن يقال عن رفاعة الطهطاوى هــذا الرائد المصرى العبقرى ·· الذى هز خمول الحياة المصرية وأحدث تيارات متدفقة فى بحيرات حياتها الراكدة · ولكن اذا كان « تور جنيف » الكاتب الروسى الأشهر قد قال مرة فى معرض تأكيده لأصول الأدب الروسى القصصى (لقد خرجنا جميعا من معطف « جوجول ») فان بوسع بل من واجب قادة الحركات الفكرية والاصلاحية والاجتماعية فى مصر أن يقولوها « لقد خرجنــا جميعا من « جبــة » رفاعــة الطهطاوى ·· وقد يكون عصرنا قد تجاوز مفاهيمه ·· وانجازاتنا قد تخطت أحلامه ·· ولكن البداية كانت من هنا ·· من عنده ! » ·

عبد اللـه النـديم
البطـل المدنى للثورة العرابيـة

مهما تباينت التسميات التى أطلقت والتى يمكن اطلاقها على حركة الجيش المصرى بقيادة الضابط أحمد عرابى بدءا بمظـاهرة طلبة الكلية الحربية فى فبراير ١٨٧٩ والتى أدت الى اسـقاط وزارة نوبار التى كان يطلق عليهـا الوزارة الأوربية نظرا لوجود وزير انجليزى فيها للمالية وآخر فرنسى للاشغال ٠٠ فضـلا عن رئيسها نوبار باشا الذى ينحدر من أرومة غير مصرية ٠٠ وكذلك أحداث فبراير عام ١٨٨١ التى أسقطت وزير الحربيـة الجركسى وفرضت وزيرا وطنيا ٠٠ وصولا الى وقفة عابدين الكبرى التى فرضت أهداف الأمة المصرية على الخديو ونظامه فرضـا ٠٠ ثم التداعيات حدثت بعد ذلك الى أن تم فرض الاحتلال البريطـانى على مصر ٠

مهما يكن من أمر هـذه التسميات وفقا لرؤيـة كل مؤرخ واجتهادات كل مفكر ٠٠ فان الحقيقة التى لا يمكن الاختـلاف عليها ٠٠ هى أنها كانت حركة نضالية ثورية فى اتجـاه المستقبل الحضارى نحو التغيير الذى يحمل رؤية وموقفا تجاه ما يجب ان يكون ضد ما هو كائن بالفعل ٠

وبهذا المقيـاس فهى حركة ثورية وليس أدل على ذلك من وقوف الشعب المصرى خلفها وقوفا صميميا بالمشاركة الايجابيـة الفعلية وليس بمجرد التأييد المعنوى أو المؤازرة العاطفية ٠٠ وأعنى بالشعب هنا اغلبيته المصرية المطلقة التى عانت القهر الاجتماعى

من الفلاحين والحرفيين وكابدت القهر السياسي من المثقفين والمتعلمين ·· فضلا عن وقوف القيادات الفكرية بجانبها ·

وكان عبد الله النديم ـ موضوعنا هنا ـ أكثر من سواه تعبيرا عن البعد الشعبي لهذه الحركة الثورية العسكرية ·· واكثر من غيره انغماسا فيها والتحاما بها ·· وهـذا ما جعله يصل لأن يكون ـ هو الرجل المدني ـ البطل الثاني بعد عرابي فيها ·

نعم كان النديم هو الوجه الآخر المدنى لهذه الحركة الثورية العسكرية ·· كان بحياته وأفكاره ·· ومواقفه ·· هو التعبير الحقيقى عن الظروف التى عجلت بكل الأحداث منذ نثر جمال الدين الافغاني أستاذ النديم بذور أفكاره الثورية فى التربة المصرية ، حقا كان عبد الله النديم أكثر من سواه هو التجسيد الحيوى للخلفية الفكرية الاجتماعية للحركة الثورية العرابية ·· وامتدادها فى ضمير هذا الشعب وأعماقه ·

فلا يمكن أن تنشب ثورة فى الدنيا ·· أو أن تقوم حركة ثورية دون أن يكون لها الفكر الذى يمهد لها ويبشر بها ·· والفكر الذى يواكبها ويبلورها ·· فحركات التاريخ فى اتجاه التطور والتغيير لا تنفجر اعتباطا ·· ولا تنطلق عشوائيا ·· أو أن تكون مجرد تشنجات انفعالية فى وجه المستحيل !!

وعن دور هـذا الرجل الذى كانت حياته بكل ما اكتنفها تشبه أسطورة من أساطير الذكاء والنبوغ والكفاح الانسانى على المستوى الذاتى والقومى ـ تحاول هذه السطور أن تتوقف عند أمشاج من حياته وافكاره ومواقفه ·· فى محاولة لاستخلاص الخلفية الاجتماعية لحركة عرابى الثورية قبلها وخلالها وبعدها ·

من قاع الحياة المصرية الشعبية جاء الثائر عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الأدريسى فقد ولد النديم فى الاسكندرية عام ١٨٤٥ ابنا لخباز · كادح كان قد جاء الى الاسكندرية صغيرا

ليلتحق عاملا بالترسانة البحرية التى أنشأها محمد على عام ١٨٣١ ليبنى لمصر أسطولا قويا يحقق له أحلامه فى فرض سيطرته على البحر الأبيض المتوسط ٠

ولكن الدول العظمى تآمرت على محمد على ٠٠ وعلى أن تصبح مصر قوة عظمى منافسة فأصدر الخليفة العثماني فرمان ١٨٤١ لتحجيم مصر فتم تحديد الجيش المصرى واغلاق المصانع الحربية ومن بينها ترسانة الاسكندرية ٠

وكان أن فصل العامل مصباح ليخرج من زمرة العمال المستورين بوجاهة الوظيفة وراتبها الى فئة الكادحين الذين يلتقطون أرزاقهم حسب التساهيل ٠ وامتهن حرفة الخبازة بعد أن قرر عدم العودة الى قرية الطبيسة بالشرقية ، فميما يكن شظف المهنة فانها أرحم من حال أجراء الأرض وقتها ٠

وكان طبيعا أن تكون هذه الحادثة أول ما يلقى بظلاله على نفسية عبد الله بن مصباح فقد ولد لرجل تعرضت أمانيه للقهر المباشر من جانب سوء الأوضاع التى يفرضها التدخل الأجنبى فى شئون مصر ٠

والحق الأب وليده الصغير بأحد كتاتيب حى المنشية حيث يعمل ، ثم بالمسجد الأنور بعد ذلك . ولكن النديم تمرد على جفاف المواد التى كانت تدرس فى المسجد الأنور ولم يرق غموض المتون النحوية والفقهية ٠٠ وحواشيها ٠ الأشد ابهاما ، فقاطع الدراسة وانصرف عنها ولكن شيخه محمد العشرى أسبغ عليه رعايته وحدبه عندما اكتشف فيه مخايل النجابة وبوادر الموهبة الأدبية ٠٠ فأخذ يصطحبه الى منتديات الأدب ومجالات الشعر ٠٠ وكان هذا هو مرامه واستعداده منذ كان ينصرف عن كل شىء ليتابع شعراء الربابة فوق المقاهى ٠٠ ومطارحات الظرفاء فى دكاكين التجار المتأدبين ٠٠ وبعد أن كان متفرجا أصبح مشاركا ٠٠ وسرعان

ما اشتهر أمره وذاع صيته مرغوبا فى بيوت السادة والأعيان والوجهاء المتأدبين ٠

ولم يرق نهجه لمصباح فخيره بين العودة لطلب العلم وبين أن يتحمل مسئولية نفسه واختار الفتى أن يواجه مصيره أديبا ٠٠ وانطلق يجوب البلاد والقرى ، بضاعته الشعر والزجل والمساجلات مع الأدباء والمتأدبين ٠٠ وكانت الاسكندرية قد أعلنت عليه الحرب بعد ان تنامت شهرته فى مجالات الأدب وأصبح مصدر تهديد لبعض ظرفائها ومتأدبيها الذين يتكسب بهذه البضاعة ٠٠ وكان النديم قد جاء بالجديد والطريف فى الأسلوب والمضمون بجانب الاستيعاب للمتداول والموروث ٠٠ وضاق بمكائد هؤلاء فهاجر الى القاهرة عام ١٨٦١ وألحقه صديقه عبد العزيز حافظ الذى كان مفتشا بمصلحة السكك الحديدية بوظيفة عامل تلغراف ٠

وقد كان الكثير من العناء فى هذه الوظيفة الى أن انتقل الى مكتب التلغراف الملحق بقصر الأميرة خوشيار والدة الخديو اسماعيل ٠٠ ومهما يكن من شأن الوظيفة فانه على كل حال أصبح من رجال القصور ٠٠ وأتيح له فائض وقت ومال مكناه من أن يغشى الندوات والمنتديات وما يكثر فى القاهرة من مجالس الأدب والظرف والفكاهة ثم قدمه صديقه المفتش الى ندوة الشيخ أحمد وهبى تاجر الطرابيش المتأدب ٠٠ فقدمه الأخير ــ بعد أن سبر غوره أديبا الى أعيان عصره من أمثال محمود سامى البارودى ومحمد صفوت الساعاتى والشيخ أحمد الزرقانى والسيد على أبو النصر وعبد الله باشا فكرى ٠٠ وأذكت المجالات الجديدة التى انخرط فيها طموحه والتوق الى مواصلة تعليمه فى الجامع الأزهر ٠

وكان جمال الدين الافغانى قد حط عصا الترحال بمصر عام ١٨٧١ (يستنشق السعوط بيمناه ويوزع الثورة بيسراه)

متخذا من مصر نقطة الانطلاق لنشر أفكاره وتحضير البلدان الشرقية للثورة والنهضة وتتلمذ النديم على جمال الدين اربعة أعوام ٠٠ ثم عادت الأيام لتكشر له عن أنيابها من جديد فقد غضب عليه خليل أغا كبير أغوات قصر الأميرة الأم ، ربما بسبب اتصاله بجمال الدين الذى كان يندد بحكم اسماعيل ٠٠ وخرج النديم من الوظيفة مفصولا وفوق هذا مهانا بالاعتداء عليه من أغوات الحريم٠٠ وكان الجرح الذى ألحق بكرامته سببا فى أن يختفى من القاهرة ٠٠ ليضرب فى البلدان والقرى على غير هدى ٠٠ يستقر فترة فى المنصورة بعد أن ذاع صيت الشعر الذى هجا به عمدة البداوى بعد أن أكل عليه مستحقاته نظير تعليم أولاده ٠٠ ولكنه عاد من جديد جواب آفاق بعد أن أفلس دكان الخردوات الذى افتتحه له أحد التجار المعجبين بفنونه ٠

وتصل شهرة النديم أديبا الى شاهين باشا مفتش عام الوجه البحرى المقيم فى طنطا وكان يأنس الى الأدباء ويستضيفهم فى بيته ٠٠ وتألق النديم فى ندوة شاهين باشا فنقم عليه الذين نافسهم فألجمهم وساجلهم فتغلب عليهم ، وهنا حاولوا تعجيزه بطريقة أخرى فكانوا يختارون من أشعار القدامى ما يظنونه اعصى على المعارضة ويطلبون منه أن يعارضه ٠٠ وقد اختاروا له مرة دالية المتنبى التى يقول فيها :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواله ما من صداقته بد

وتحدوه أن يعارض هذا البيت وابيات أخرى قبله ٠٠ وانطلق النديم يرتجل كاشفا عمق غوره ورهافة شاعريته يعارض القصيدة الى أن وصل الى البيت السالف يقول :

ومن عجب الأيام شهم له حجا
يعارضه غرويفحمه وغد

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما
لتحفظ أعــراض تكفلها المجد

ولم يعارض الشعراء القدامى ويفحم المحدثين فحسب ، بل ساجل أشهر « أدباتية » عصره من الذين يرتجلون الأزجــــال ويحترفون التشطير ٠٠ وقد استدعى له شاهين باشا ذات يوم شيوخ هؤلا وعماليقهم فتغلب عليهم جميعا وهزمهم بعد مناظرات امتدت عد ساعات كان هو فارسها الأوحد ٠

واذا كانت مواهب النديم قبل ذلك قد تكشفت عن اديب مطبوع وشاعر فذ وزجال موهوب ٠٠ وامام لظرفاء عصره من عباقرة الطرائف والفكاهة والنوادر ٠٠ فقد تفجرت بعد ذلك ابتداء من عودته الى الاسكندرية عام ١٨٧٩ عبقريته الأخرى ٠٠ المفكر الثائر والصحفى المتفوق الذى يحمــل مصر فوق كتفــه لقد اضــاء له جمال الدين الطريق وعليــه الآن أن يبدأ ٠٠ وهو ابن الشــعب المضطهد القادم هو من أحشائه ٠

كانت مصر تعيش أسوأ فترات تاريخها خلال عهد اســماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ فقد أباحها لترفه وللمغامرين والمرتزقة من الأجانب يستنزفونها قطرة قطرة ولا أجد وصفا أكثر بشاعة لحــال مصر أيامها مما صوره النديم فى مذكراته « تاريخ مصر فى هذا العصر » وكان النديم لا يكتب من بعيد فقد كان فى قلب الأوضاع جوالا فى القرى والدساكر ٠٠ يشاهد بعينه ضراوة ما يفعله بالشعب زبانية اسماعيل وجباته فقد كان يستعمل من هؤلاء كل صخرى الفؤاد وحشىالأخلاق » ويصف لنا النديم ثمة مشهد رآه لتحصيل الضرائب بقوله (وقد شاهدت القواصين وجباة الضرائب يعترضون سير جنازة فى أحد الشوارع ٠٠ ثم تقدم كبير القواصين وأمر بانزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبــة التى كانت مستحقه على الميت) لقد ابتدأ الدور الايجابى الفعــال لابن الشعب الثائر والمفكر والصحفى ٠٠ فقد انتقل اهتمامه من طرائف الأدب وخرائد

الشعر وطرائف الزجل ·· الى الحياة والواقع الأليم لشعبه ، وهذا ما تعكسه كتاباته فى صحيفتى مصر والتجارة ، ثم انخرط عضـوا فى جمعيـة مصر الفتـاة التى أنشأها لفيف من الشـباب الساخط ·

ولكن لم يرق للنديم عملها السرى فى الكفاح فانفصـل عنها الى العمل فى ضوء الشمس وفقا لطبيعتـه ·· ليتخذ من القاعدة الشعبية والرأى العام منطقا للتنوير بواسطة الصحافة والخطابة فى التجمعات الشعبية ·

لقد كانت الجمعية الخيرية الاسلامية التى أنشأها بالاسكندرية عام ١٨٧٩ نقطة الانطلاق لنشر افكاره ·· وكان من مهامها انشاء المدارس لكل أبناء الشعب بمصروفات للقادرين منهم وبالمجان لأولاد الفقراء ·· ولقد عبر عن منهجه الحضـارى بخطبته عند افتتـاح أولى مدارس الجمعية بقوله ان المدرسة تعلم الأطفال الأخوة فى الوطن وتبعدهم عن التعصب للدين او العنصر وتنشئهم على الوطنية وحب الانسانية ·· ومن العجب أن قائل هذا يتهم بعد ذلك بالتعصب الدينى من جانب أصحاب الصحف العميلة التى حاربهـا بعد دعوته من المنفى خلال استئناف الحركة الوطنية لمسيرتها فى عهد الخديو عباس حلمى ·

ولم تكن رسالة هذه المدارس أن تنشر التعليم فحسب ·· بل أرادها النديم أن تكون منطلقا للثقافة بمدلولها الواسع الكبير ·· فقد باشر بنفسه اقامة جماعات الخطابة والآداب ليدرب تلاميذه على هذه الفنون بجانب فن التمثيـل ، بل لقد كتب لهم التمثيليـات الوطنية الهادفة ليؤدوها أمام الجمـاهير وعندما نجحت الجمعيـة الخيرية الاسلامية انطلق يحث المواطنين الأقباط على انشاء جمعية لهم على غرارها ·· وفعلا قامت الجمعية الخيرية القبطية لتؤدى نفس الرسالة ·

وكانت دعوة جمال الدين ضد طغيان الحكم ونهب الأجانب قد أتت أكلها فأرغم اسماعيل على التنازل عن العرش لابنه توفيق.. ولكن الأخير لم يلبث أن خان شعبه وثقة الأمة وأملها فيه وأعطى أذنه وقلبه لقناصل الدول ومستشاريه الأجانب فانطلق يضطهد الحركة الوطنية .. ونفى جما لالدين متهما اياه بالعمل على فساد الدين والدنيا .. ولم يتوقف النديم .. حمل الراية بعد أستاذه .

وتمكن النديم بطريقة من طرق ذكائه أن يستصدر اذنا باصدار أول صحيفة لحسابه الخاص بدلا من صحف الغير فصدرت التنكيت والتبكيت عام ١٨٨١ وأرادها صحيفة لكل أبناء الشعب يجد فيها المثقف ما يخصه ويلقى فيها العامى ما يروقه .. ومن خلال جناحيها يواصل النديم دعوته الاصلاحية والثورية بالأسلوب المباشر تارة والرمزى طورا وحملت الصحيفة الجديدة عبء مناهضة العادات التى جلبتها سيطرة الأجانب على شئون الأمة المصرية وحملت على التفرنج المظهرى الزائف وكشفت عن أوضاع مصر المريضة بعد أن اصيبت « بالداء الافرنجى ولا أجد وصفا لحال مصر أيامها اصدق من هذا الوصف الذى جاء فى أحد أزجاله » :

أهل البنوكا والأطيان
صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان
معاه ولاحق الدخان

شرم برم حالى غلبان

ثم انطلق يحمل حملات شعواء على محاولات هدم اللغة العربية واستبدال اللغات الأجنبية بها .. وكان من أوائل الذين فطنوا منذ البداية الى أن اللغة ليست مسألة تتعلق بمجرد اللسان ولكنها قضية القومية الوطنية قبل كل شىء فاضاعة اللغة تسليم للذات) واشتد عليه الأعداء واشتد عليهم .

ثم ان واقعة محاولة نفيه أيامها من جانب رياض باشا لها دلالتها فى هذا المجــال • الا يؤكد رياض باشا بهذا أن عيونــه وجواسيسه قد أخبروه بصلة النديم بقادة الجيش •• أعنى العناصر الثورية فيه ، فأراد ان يستصدر من الخــديو قرارا بنفيه ، ثم لنتوقف أمام ما قاله الضابط على فهمى قائد حرس الخديو معترضا على المحاولة « ان نديما منا معشر العسكريين وان لم يحمل ســلاح العسكرية ولئن أخذتموه بغتة من البلاد حافظنا عليــه بالأرواح والأجناد » فهى تعنى أول ما تعنى دوره داخل التنظيم العسكرى الذى يعد للثورة ، ثم ان كتاباته وخطبــه أيامها كان يشتم منهــا ما سيحدث ؟ وأبلغ على فهمى النديم بالواقعة ، كما أبلغه تكليفا من حركة الجيش بأن يتولى أمر الدعايــة لها • واندفع الثــائر كالعاصفة •• يجوب البلدان مبشرا بما هو قادم وعندما عــاد من جولاته استدعاه عرابى ليتخذه مستشارا •• وكان أول عضــو مدنى من الشعب فى تنظيم ثورى له صفة العسكرية •• وبدأت مرحــلة جديدة من حياة النديم متصلة بما سبقها •

فبعد مظاهرة طلبة الكلية الحربية التى تحدثنا عنها فى البداية وبعد حركة فبراير عام ١٨٨١ وصلت الأحداث الثورية الى قمتها • وأصبح عرابى زعيم الأمة الأوحد •• التفت حوله جموعها وقادة الرأى فيها •• بعد أن انطلق النديم فى البلدان يوزع منشورات الجيش ويشرح أهداف الحركة ويجمع التوكيلات لعرابى ورفاقه ، ثم يقف بجوارهم يوم الهول غير عابىء بأن رقبته يمكن أن تكون الثمن لو فشلت الثورة •

الطائف •• لسان الثورة ومنبر الشورى

أخذت البلاد تتأهب لحكم الشورى وانتخــاب مجلس نيابى يمثل الأمة •• وانطلقت دعوات خبيثة تريد أن تقصر حق الانتخاب وحق تمثيل الأمة على الطبقة المتعلمة وحدها • ولكن عبد الله النديم

المفكر الثورى وابن الشعب الذى سلبت حقوقه . فطن لى خلفية ما تنطوى عليه هذه المزاعم حتى لا يرفع الشعب رأسه وان تظل الوصاية عليه قائمة فى أشكال أخرى .. وتطلبت المرحلة الجديدة صحافة مغايرة للنهج الذى كانت تنهجه التنكيت والتبكيت فأشار عرابى على النديم أن يوقفها ليصدر صحيفة أخرى وفقا لمقتضيات المرحلة .. فأصدر النديم صحيفة الطائف لتكون لسان حال مجلس نواب الأمة ومنبرا للحركة الثورية الديمقراطية ومجابهة خصوم الشعب .

فقد انطلقت عواصف المؤامرات تحاول أن تعصف بالاتجاه الديمقراطى ومشى شريف باشا رئيس الوزراء فى ركاب المؤامرة الأجنبية .. وكان النديم يقظا لما يدبر فى الخفاء وفى العلن .. فتدافعت كتاباته تذب عن حياض الديمقراطية واطلقت عليه الأمة لقب محامى الشعب .

وفشلت المؤامرة فى البداية عندما وقف مجلس شورى النواب وقفة حاسمة مطالبا بتنحية شريف باشا وتعيين محمود سامى البارودى رئيسا لمجلس الوزرا .. ولم يكتف النديم فى « الطائف » بالتنظير السياسى المباشر فانطلق يكتب فى أحوال مصر الاجتماعية .

من منظور سياسى أيضا .. فطالب بتصفية الأوضاع الطبقية ورفع الظلم عن كاهل الطبقات الكادحة واحلال المصريين بدلا من الأجانب فى أجهزة الدولة ولكن كيف يمكن أن ترفع مصر رأسها .. وقد أرادها الأجانب سلعة يتاجرون فيها ، الأتراك عزبة يمتصون خيرها .. وتوالت المؤامرات تنسج خيوطها وقاوم الشعب وقام النديم بدوره ، ولكن الأمر انتهى بالخديو الى الخيانة السافرة وانضم الى معسكر الاحتلال القادم وضربت الاسكندرية بقنابل الأسطول البريطانى فى ١١ يونيو عام ١٨٨٢ ودافع الشعب مع الجيش عن مدينته التى دكت ، ولكن شرف الأمة لم يذعن

فانطلقت مصر تقاوم بجيشها وشعبها ورفض عرابى أمر الخديو بالاستسلام وانطلق النديم فى قلب المعركة يطبع المنشورات ويحرر الطائف من داخل الموقع الحربية ٠

ولكن الهزيمة لاحت بوادرها ثم أصبحت حقيقة بعد موقعة التل الكبير ، وركب النديم والروبى وعرابى القطار الى حيث مقر وزارة الحربية فى قصر النيل وكان المجلس العرفى منعقدا ٠٠ وقدم عرابى تقريره فقرر المجلس التسليم مع كتابة عريضة الى الخديو الذى كان قد لاذ بالاسكندرية ليكون فى حماية القوات الانجليزية الغازية يلتمسون عفوه ويعتذرون عن العصيان ، وكان النديم قد كتب فى البداية صيغة اعتراض عليها ، اذ أبى أن يعترف بأن ثمة عصيانا قد حدث « فقد فعلنا ما وجب » وأملى بطرس غالى وكيل الحقانية وعضو المجلس صيغة أخرى تقدم الخضوع لولى النعم وتعتذر عما سلف من عصيان وتلتمس رحمة الخديو وعفوه ووقع عرابى العريضة ضمن أعضاء المجلس العرفى ٠

واستشاط النديم غضبا وانطلق يعاتب عرابيا بل يؤنبه ٠٠ « كيف تكون عاصيا وقد قدت الأمة تطلب الحرية ولم تكن وسيلتك فى ذلك حتى النهاية الا ما يقره القانون الانسانى والشرف العسكرى ٠٠ احترمت القانون ولم تفكر فى نفسك بل فى مصر ومستقبلها لقد عينتك الأمة قائدا لجيوشها لتدافع عنها من خطر المحتل ، وكان تعيينك شرعيا من السلطان والخديو ومجلس النواب واجماع الأمة فكيف تكون عاصيا » ٠٠ ؟

وعذبت عرابى كلمات النديم ولكنها أعادت اليه التفكير السليم مع الثقة فانطلق يستعد للحرب من جديد وأرسل تليغرافا الى الوفد الذاهب الى الخديو بعريضة الاسترحام يأمره لينتظر النديم فى كفر الدوار ٠٠ وكان النديم قد استقل قطارا خاصا ليلحق بالوفد ٠٠ ولكنه لم يجده هناك فقد وصلت البرقية بعد أن أقلع

قطارهم الى الاسكندرية يوم ١٨٨٢/٨/١٤ وركب الخديو رأسه فأعلن رفض الالتماس وألقى بأعضاء الوفد فى السجن ٠

واختفى النديم وحافظت عليه الأمة

هزمت مصر واستباح الأجانب والخونة والعملاء ربوعها ودخل القائد الانجليزى قاهرة المعز يوم ١٥ سبتمبر وفى ركابه سلطان باشا نائب الخديو الذى اندفع يصفى حساباته مع الثورة وكل من آزرها فملأ السجون بالشرفاء والمواطنين وكل زعماء الحركة الوطنية، ولكنه لم يستطع أن يصل الى النديم الذى سارع بالاختفاء ٠٠ وانطلق الجواسيس يبحثون عن الثائر الوطنى يطلبونه حيا أو ميتا ثم ترصد المكافآت لمن يرشد عنه فقد كان يمثل للاحتلال والخونة والعملاء ضمير الأمة التى لابد أن تحاكم فيه ٠

وظل النديم مختفيا فى قرى مصر ومراكزها لمدة تسع سنوات ٠

وأصبحت قصة اختفائه أسطورة وطنية انه المخلص الذى اختفى ليعود من جديد ، وفى مخبئه وعلى ضوء نور لمبة الجاز اندفع يكتب تاريخ مصر فى هذا العصر ويدبج الرسائل البديعة وينظم الأشعار ويكاتب بعض الأصدقاء ، ولعل الرسالة التى كتبها من مخبئه فى برية المندرة الى أحد أصدقائه تعطينا صورة عن الأمور التى كان يشغل بها نفسه خلال فترة الاختفاء الطويلة « ان سألت عني فأنا بخير وعافية ٠٠ وحالة رائقة صافية لا اشغل فكرى بما يأتى به الليل اذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ولا أتألم من طول المدة ووقع الشدة لاعتقادى أن لكل شدة مدة متى انتهت جفت الأوحال ، وحسنت الحال فتراني فكرى كليمي وقلمى نديمى استودعه ما فى الصدور فيحفظه فى السطور ، ثم يرده على كتابا لم يجمع الا صوابا ٠ فأعود اليه بالنظر لترويج الفكر ، تارة اشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول ٠ وأجمع عقائد اهل السنة بما تعظم الله المنة ٠ وحينا أشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد ٠

ب وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنــة ٠

ولكن وشاية لمخبر حقير كان يعمل فى الحكومة من قبل ويدعى حسن الفرارجي أدت الى القبض على النديم وهو بقرية الجميزة يوم الثانى من أكتوبر عام ١٨٩١ وسيق الى طنطا ليحقق معه قاسم أمين وكيل النيابة الذى عامله بلطف واكرام وشاع خبر القبض على النديم فانطلق الشعب المقهور يطالب بالافراج عنه ممثلا فى الأقلام الصحيفة الوطنيــة وقرر مجلس الوزراء ابعاد النديم الى الشــام والافراج عن كل الذين عاونوه وتستروا عليه خـلال سـنوات الاختفاء ٠٠ ونفى النديم الى يافا ٠٠ ليواصل دعوته الحرة بين شعبها ومثقفيها وأعيانها ثم مات توفيق وتولى عباس الثانى حكم مصر فأصدر عفوه عن النديم وأباح له حق العودة متى شاء وعــاد النديم الى مصر يوم التاسع من مايو عام ١٨٩٢ ليجدها فى قبضــة الأجانب وخطيرة الاحتلال فهل يصمت اللسان الذى تعود أن يقذف الحمم ٠

ووجد النديم أن دوره فى الخطابة والجمعيــات والاتصــال بالشباب الثورى لم يعد كافيا فهو يعرف جيدا أن الميدان الحقيقى الصالح لجهاده هو الصحافة ٠٠ فأوعز الى شقيقه عبد الفتاح أن يستصدر ترخيصا باصدار صحيفة الأستاذ ومن خلالها عاد النديم الى الدعوة والمقاومة وتنوير الشعب وانطلق يضرب على ما جلبه الاستعمار على مصر من ويلات وعادات دميمة ٠٠ ويطالب باصلاح التعليم والاقتصاد والصناعة الوطنية كما طالب بانشاء مجمع علمى لدرء الخطر عن اللغة العربية ووقف يؤلب الشعب ويساند الخديو ضد كرومر والهبت مقالاته الوجدان المصرى من جديد وعادت لهم ذكريات الثورة العرابيــة ونشوة الأمجاد التى بددتها خيانة العملاء وجحافل الغزو ومن جديد خرجت المظاهرات تطالب بالجلاء وعادت

الصحف الوطنية تعزف نغمة الحرية ٠٠ ويتحدث النديم عن الثورات التى قامت فى البلدان الأوربية ذاتها لتحقيق حق الانسان فى الحرية والاخاء والمساواة ٠

تنطلق الصحف العميلة تملقا لكرومر والاحتلال تحمل على النديم ويأبى النديم الا أن يفضح عمالتها متحديا نفوذها لدى عميد الاستعمار وتتهمه صحيفة المقطم صراحـة بأنه يمهد لثورة على غرار الثورة العرابية ٠ وقدم كرومر الانذار لصحيفة الأستاذ تلو الانذار ولكن النديم لم يتراجع فما كان من كرومر الا ان طلب من الخديو قرارا بنفى النديم من جديد ٠٠ ورفض الخديو فى البداية ولكنـه لم يستطع أن يقاوم ضغط الاحتلال والصحافة الأجنبية فى الخارج والصحف العميلة فى الداخل وتقرر نفى النديم فاختار يافا مرة أخرى٠

وبعد اربعة أشهر قضاها شاهرا لسانه ضـد الاحتلال فى مصر وسوء الأحوال فى البلدان الواقعة تحت سلطان الدولة العلية ، ونقلت عيون السلطان أخبار ما يقوم به النديم فى يافا ٠٠ فأصـدر الباب العالى قرارا بابعاد النديم عن يافا وكل ارض تابعة لتركيـا وأصبح الشيخ الواهن مطاردا من جديد ، لا مقر له ولا مأوى ، فالقرار السلطانى يعنى حرمانه من العودة الى مصر ، وهى تابعـة اسميا للسلطان العثمانى ، كما يعنى سلبه حق أن يحط فى أى بلد عربى تابع للسلطان ٠ وحملته الباخرة الى الاسكندريـة فى انتظار أن تحل مشكلة اقامته ، وهنا أغراه مختار باشا مندوب الباب العالى أن يسافر الى القسطنطينية حيث عرين السلطان ٠

واهتاج الصيادى وانطلق يقنع السلطان بمؤامرة وهميـة يدبرها جمال الدين والنديم مع الخديو عباس الذى كان قد زار الآستانة عام ١٨٩٤ لاقامة خلافة عباسية بايعاه بها تحت الشجرة فى حديقة الكاغد خانة ودأب الصيادى يكيد له عند السلطان وعندما زار عباس تركيا مرة أخرى عام ١٨٩٥ وطلب منه النديم أن يعود معه الى مصر اصطحبه عباس معه على باخرته حين العودة ، وانتهزهـا

الصيادى فرصــة للحديث من جديد عن بيعة الخلافــة فى العــام الماضى ٠٠ فها هو ذا النــديم يهرب دون أن يستأذن الســلطان لينسج خيوط الخلافــة الجديدة ويدعو لها وحجزت البــاخرة فى الدردنيل وأعادوا النديم من جديد تمهيدا لنفيه الى احدى الولايات النائية ، ولكن النديم أقنع السلطان ببراءته فأقلع عن نفيه ولكن دون أن يسمح له بالعودة الى وطنه ٠

وتمكن مرض السل من أن يفتك بالنديم فى النهاية فسقط المجداف من يد الربان ولفظ أنفاسه الأخيرة مغتربا محروما من وطنه فى اليوم العاشر من أكتوبر عام ١٨٩٦ وانتهت رحلة كفاح اسطورية لبطل من أبطال الحرية والوطنية ٠٠ ولكن عبد الله النديم سيظل فى حياتنا رمزا خالدا متجددا لثائر عنيد ومناضــل شريف ٠٠ وقلم مكافح ٠٠ سيظل رمزا خالدا متجددا وتعبيرا عن اصالة مصر التى تجسدت فيه وجسدها هو أروع تجسيد وأوضحه ٠

قاسـم أمين .. دفـاع عن الاسلام !

من أخطر الآفات التى أصابتنا نحن العرب ـ بعد أن تهرأت صلاتنا بمنابع تراثنا الاسلامي واشراقاته من جراء قرون التخلف التى فصلتنا عن قافلة حضارتنا بنزوعنا الى التقدم والتطور والتحاور مع الحياة ومستحدثات امتدادها من خـلال الوقوف على قاعـدة الاسلام بغير جنوح عنها او خلخلة لها .. ان عقولنا غدت خاملة تتجنب مكابدة الحوار مع غير ما استقر لديها وتخشى صـدمة غير المـألوف عندها فكل جديد يجابه بالرفض وكل مستحب يواجه بالشك وكل ما يستنفر ما تعودناه يتهم بالمروق .

واتساقا مع هـذا الوضع وانبثاقا منه فى ذات الوقت غدت نظرتنا للأمور بمختلف جوانبها أحادية الرؤية لا ترى الصـورة الا من الزاوية التى تتوافق مع هواها بغير أن تفطن الى أبعادها الواضحة أو المتوارية..فالجميل ما أراه أنا جميلا مهما كنت أو كليل البصر أو قصير النظر وان خالفته فأنت الأعشى بل الأعمى تماما وبلا جـدال .

وربما تكون هذه الصورة التى اوصلنا اليها الغرباء من المماليك والسلاطين واغوات الولايات ـ قد تغيرت بفضل محاولات الاصـلاح التى اضطلع بها قادة الفكر والرأى .. ومازالت المسيرة متواصلة لتغيير واقع الحـال ولكن علينا أن نكافح بلا هوادة من أجل ترسيخ قيم الحوار وصولا الى الحقيقة بغير اتهام لمن يخالفنـا ما دامت نواياه بريئة حتى ولو كانت وجهات نظره خاطئة .. ومن هنا تنطلق دعوتى لمراجعة رواسب بعض المفاهيم التى توارثناها عن بعض قادة الاصلاح فى عالمنا العربى خصوصا عندما تواتينا وثائق جديدة تدعو لاعادة النظر واستخلاص الصـورة بغير شـوائب .. وما أردت

بهذا ثرثرة فى المطاق أو امعانا فى التجريد · لأن ثمة كتابا جديدا استفزنى أو حفزنى لأقول هـذا الذى قلته وقيمة الكتاب انه من تأليف قاسم أمين الذى عرف بكتابه « تحرير المرأة »والذى أثار فى حينه (١٨٩٠) ضجة لم تخفت بعد تداعياتها ـ وانه ـ الكتاب الجديد ـ كان مكتوبا بالفرنسية منذ عام ١٨٨٤ ردا على مغالطات الدوق الفرنسى « داركور » وتهجماته على الاسلام ورسوله فى تناوله لأوضاع المصريين فى كتابه الصادر فى فرنسا عام ١٨٩٣ وان هـذا الكتاب ـ بقلم قاسم أمين لم تتم ترجمته الى العربيـة الا مؤخرا بواسطة حفيده الذى يحمل نفس اسمه ·· ولما كان الكتاب قد ألفه قاسم أمين قبل أن يصدر كتابه « تحرير المرأة » بنحو ست سنوات فانه يمكن أن يكون مرجعا لتصحيح النظرة الى هذا الرجل الغيور على دينه المتمسك بتعاليمهالمنافح عن شريعته ·· وليس ادل على ذلك من انه عندما قرأ بالفرنسية كتاب « داركور » بادره الهم ووقع فريسة المرض فى فراشـه لمدة أسبوعين · وما أن شفاه الله حتى افاض بكل مخزون ثقافته الاسلامية يفند مغالطات هـذا الفرنسى الحاقد الجاهل ·

لقد تعرض قاسم أمين لتهجمات ضارية تجـاوزت فكره الى شخصه وحاولت التشكيك فى عقيدته منذ أن صدر كتابه « تحرير المرأة » وكتابه التالى « المرأة الحديدة » واذا رجعنـا الى صحف أواخر القرن التاسع عشر سنجد نماذج كثيرة من الكتابات المتهجمة وربما يكون بعضها لم يقرأ من الكتاب الأول الا عنوانه وانطلق يكيل السباب لمجرد أن العنوان ذاته يصدم الأوضاع التى كانت عليها المرأة فى ذلك الحين واذا كان الكتاب ـ كما قلت ـ كان عرضة للهجوم فانه أيضا لقى الاستحسان · ولكن أغلب الذين عارضوه لم يتحروا ان الرجل كان مسـلما يعرف جوهر دينه وان دعوته لانصاف المرأة ورفع الاغلال عنها كانت مستمدة من مبادىء الشريعة لدرجة أن بعض هؤلاء المهاجمين جردوه من فضل تأليف الكتـاب

ونسبوه الى الشيخ محمد عبده لأن ثقافة قاسم أمين فرنسية لا تتيح له التعرض لمسـائل فقهية لا يجيدها الا أصحاب الثقافة الأزهرية وتلك واحدة من المغالطات فالرجل كان قاضيا هضم تراثه الاسلامى جيدا قبل أن ينال شهادته فى القانون من فرنسا ٠٠ ولكنهم بهذا الزعم أرادوا أن يكيدوا له ولصديقه واستاذه الشيخ محمد عبده الذى كانت دعوته للاصـلاح تقابل بالاعتراض من قبل المتزمتين من كافة الاتجاهات ٠

واذا كان أصحاب الانغلاق والتحجر الفكرى قد أساءوا فهم قاسم أمين فان الذين استحسنوا دعوته وناصروها قد أساءوا أيضا فهم دعوته ٠٠ لانهم نظروا اليها من زاوية انها وليدة ثقافته الفرنسية وتأثره بالفكر الغربى ٠٠ بدون أن يفطنوا الى المرجعية الاسلامية التى تصدى بها للأوضاع الاجتماعية المزرية التى كانت عليهـا المرأة المسلمة فى حين تأليفه لكتابه ٠٠ واذا كان الرجل (١٨٦٣ ــ ١٩٠٨) قد أتاحت له ظروفه أن يلم بالثقافة الغربية فانه تعامل معها واستوعبها من موقف اسلامى ضليع الفهم للقرآن وللشريعة الاسلامية نصوصا وفقها وأدبا ٠٠ وهذا ما يؤكده كتابه فى الرد على الدوق الفرنسى بلغته ولو كان هـذا الكتاب قد صدر بالعربية فى حينه ٠٠ أو ترجم اليها لتوارت خجلا بعض الكتابات التى هاجمته وبعض الكتابات التى ناصرته ٠

وأنا أعتقد أن هذا الكتاب فى الرد على كتاب « داركور » يقف من أهم الكتب التى تصدت للمغالطات الصليبية والاستعمارية عن الاسلام والتى تنامت وتفاقمت منذ أن أخذت أوربا تنكمش أمام الزحف الاسلامى ٠٠ حيث استولى السلاجقة على ما يقرب من نصف الامبراطورية البيزنطية كما تحول البحر الأبيض المتوسط الى ما يشبه البحيرة الاسلاميـة ٠ ناهيك بالدولة الاسلاميـة فى الأندلس وامتدادها الى تخوم فرنسا وعندما دار الزمان دورتـه لتهيمن أوربا على غالبية ديار الاسلام ٠٠ فان هذه الكتابات أخذت

تتبجح بأن غلبة أوربا مرجعها الى الروح المسيحية وان هزيمة دول المسلمين مردها الى الاسلام الذى يدعو الى الجبرية ويحوم حرية البحث واذا كان الأفغانى قد تصدى لرينان ومفترياته ٠٠ واذا كان محمد عبده قد أفحم هانوتو فان قاسم أمين قد الجم داركور أيضا ٠٠ وربما بطريقة أكثر احاطة لأن « رينان » و « هانوتو » قد تعرضا لقضايا محددة ٠٠ أما « داركور » الذى زار مصر عدة مرات فهو لم يترك نقيصة فى حياة المصريين بدون أن يرد التهمة الى الاسلام الذى أدى لهذا ٠٠ مما عجت به صفحات كتابه عن مصر والمصريين الذى صدر فى فرنسا عام ١٨٩٣ وما أكثر القضايا التى تناولها قاسم أمين فى رده على هذا الفرنسى ٠٠ ولعل أهم ما سيصدم دعاة التغريب عندنا أن قاسم أمين قد دعا فى كتابه هذا ردا على على داركور الى استلهام الاسلام ومبادئه من أجل نهضة المصريين والمسلمين وتحفظ على احتذاء النموذج الغربى فى هذا ٠٠ لم يترك قاسم أمين فى كتابه هذا بالفرنسية والذى لم تتم ترجمته الا مؤخرا ــ أية نقيصة حاول داركور أن يلصقها بالاسلام افتراء من جهة وجهلا من جهة أخرى ٠٠ الا وحولها الى ميزة للاسلام وفضيلة فيه معتمدا على فهم حقيقى لروح الشريعة وحكمة النص ومقابلة بينهوبين أفاعيل الكنيسة المسيحية وأن الاسلام قد صهر الطبقات فى بوتقة التوحيد وانه بالزيجات جنب المسلمين صراع الطبقات ٠٠ وأن تعدد الزوجات أو اباحته فى حالة الضرورة القصوى قد حمى المجتمع الاسلامى من الانحلال والفجور الذى يسود المجتمعات الغربية ٠٠ وكذلك كشف عن حكمة الطلاق ٠٠ فى حالة الضرورة أيضا ــ وان الطلاق جاء اباحة وخلاصا عندما تسد كل الأبواب أمام معاشرة تسودها المودة والألفة وليكون رحمة لا عقابا ٠٠ وضرورة لا نزوة ٠٠ ولهذا لم يعرف المجتمع الاسلامى العلاقات السرية والعشيقات واللقطاء ٠٠ فالمرأة لزوجها وحده ٠٠ والرجل لزوجه وحدها والابن له نسبه ٠

فما أكثر ما جاء به هذا الكتاب من القرآن والأحاديث فى كل القضايا التى تناولها داركور عن وضع المرأة فى الاسلام وعن الرق وعن موقف الاسلام من حرية الانسان ومسئوليته . وقاسم أمين لم يتعامل مع النصوص التى أتى بها استشهادا وتفنيدا الا من خلال وعيه وادراكه لحكمتها ومغزاها وتحليل لها على ضوء الطبيعة البشرية وعلى ضوء الواقع المحصن بقيم الاسلام هنا والواقع المنحل هناك والذى تحاول الأفكار علاجه .. ولعل قاسم أمين فى هذا الكتاب هو أولا مفكر عربى مسلم قد استشرف حقيقة أن عالمنا بأسره لن يجد الخلاص الا فى الاسلام وهو يخاطب العالم بأسره فى هذا الكتاب قائلا : « أنا انسان أبعد ما يكون عن التعصب ولكنى أعتقد بأن الاسلام سيكون أعظم علم يمكنه أن يجمع فى يوم ما الانسانية كلها تحت عقيدة واحدة فهو ببساطته وبخلو قواعده من التصوف وبأخلاقياته الفعالة وبسهولته المشهودة وبما عرف عنه من تسامح كبير .. يستطيع أن يكون المرشح ــ على ما اعتقد ــ ليقوم بالدور الأول وسيادة هذا العالم وذلك هو الأمل الذى يصبو اليه القرآن والذى سيتحقق فى وقت ما ــ منذ قرن أو أكثر قيل هذا الكلام .. وها نحن نرى بعض المفكرين فى أوربا نفسها يتنبأون بل ويتمنونه خلاصا لعالم قد أنهكه الضلال !! والآن .. هل يمكن أن يراجع بعضنا فكرته عن الرجل .

جـورج أبيض
أيام لن يسـدل عليها السـتار

يقتضى الانصاف أولا ــ وقبل أن أتحدث عن هـذا الكتاب الممتاز « جورج أبيض ــ أيام لن يسدل عليها الستار » والذى اصدرته هيئة الكتاب مؤخرا بقلم ابنته الأديبة سعاد أبيض ·· يقتضى الانصاف قبل التعرض لهذا الكتاب الذى جمع فى مادته بين وجدانية التناول ومرجعية الوثائق ·· أن أقول بتأكيد واثق بأن الدور العظيم الذى قام به جورج ابيض هذا الفنان النازح من لبنان الى أرض الكنانة أبدا لن يسدل عليه الستار مهما كرت السنون وتوالت الأحقاب ·· ولن تطيح به أبدا رياح النسيان او الجحود ·· فهو المؤسس الحقيقى للمسرح الجـاد ·· وهو الذى فجر مناخا من خلاله اهتدت الحركة المسرحية الى الطريق الصحيح ·

وان كان مما يثير الشجن أن تمر بنا الأيـام ·· فى صمت اعلامى غريب بدون أى حديث عنه فى صحيفة أو اذاعة يعادل اهمية الدور الذى قام به على مسرح النهضة الثقافية بوجه عام والنهضة المسرحية بوجه خاص ·· ومن الحق أن مصر لم تجحد هذا الدور وقد حف به التكريم أثناء حياته وبعد مماته ·· ولكن رائدا مثل جورج يجب أن يكون صنيعه ماثـلا فى كل الأونة ·· وللحد من تهورات بعض انصـاف الموهوبين الذين يملأون الساحة صراخا عن عبقرياتهم المزعومة بل يدفعهم التبجح الى الادعـاء بأنهم جيـل بلا أساتذة ·· ولولا الذين رصفوا لهم الطريق بمعاناتهم ومهدوه بقطرات عرقهم ما كان يمكن أن يكون لهم وجود فى مجـالات الفن والأدب والصحافة ·

وأحسب ما حدث من تجاهل ـ لم يكن الا مجرد سهو عابر لا ينطوى على أى معنى بالجحود أو الاهمال ٠٠ وان أيام جورج أبيض لم يسدل عليها الستار ٠٠ ولن يسدل أبدا !!

فهو أول عربى درس المسرح على الأسس العلمية فى فرنسا٠٠ كما أن أول عربى يعتلى خشبة المسرح الفرنسى فى باريس ويقف أمام عمالقة المسرح هنـاك فى ندية وتفوق مما جعل الصحافـة الفرنسية تكتب عن عبقرية هذا الشاب العربى وتتنبأ بالمستقبل المرموق الذى ينتظره فى بلاد العرب التى جـاء منهـا ٠٠ وكان الخديوى عباس حلمى قد أوفده الى فرنسا على نفقته الخاصـة بعد أن أعجب بذكائه وثقافته عندما كان يعمل ناظرا لمحطة سيدى جابر بالاسكندرية ٠

وقد جاهد جورج أبيض منذ عودته من فرنسا على ارســاء دعائم المسرح العربى الحقيقى بالأعمال العربية التى قدمها وشجع الأدباء على تأليفها ٠٠ وبالأعمال العالمية التى قدمها ٠٠ وهو الذى نادى منذ عـام ١٩٠٢ بانشاء المعاهد المسرحيـة مما جعل حاكم مصر يستجيب له ويوفده الى فرنسا على نفقته عام ١٩٠٤ م ٠ واذا كان هو أول عربى يعتلى خشبة المسرح الفرنسى على حد تعبير صحيفة (لوماتان) الفرنسية فى عددها الصـادر يوم ١٦ مارس عام ١٩١٠ ٠ فقد كان كذلك أول عربى يقف على مسرح الأوبرا المصرية بفرقته عام ١٩١٢ م بمسرحية عربيـة من تأليف حافظ ابراهيم ٠٠ وكان الأمر فى الأوبرا قبل ذلك قاصرا أو مقصورا على الفرق الأجنبية الزائرة وحدها !

وقد مهد بذلك الطريق لطموحات المواهب العربيـة تأليفا وتمثيلا وتلحينا ومهما قيل عن عبقرية سيد درويش فعلينا أن نتذكر أن جورج أبيض هو الذى أعطاه الفرصـة لاظهار عبقريته فى التلحين بعد أن كان مجرد ملحن مغمور لا جمهور له غير جمهور مقـاهى « حى كوم الدكة » بالاسكندرية ٠

وعلى مدى عمره منذ عودته من فرنسا حتى وفاته عام ١٩٥٩ كافح بلا هوادة ليكون المسرح مؤسسة حضارية لا تقل فى دورها الحضارى عن دور الجامعة .. وما أكثر ما يمكن أن يقال عن هذا الدور فى مجال المسرح وبناء النهضة السينمائية واقامة الجسور بين الثقافة العربية والثقافة الغربية .

ولعل هذا يكون مجرد مدخل أو دعوة الى قراءة هذا الكتاب « جورج أبيض ـ أيام لن يسدل عليها الستار » .. الذى قدمته لمكتبتنا العربية ابنته الوحيدة السيدة سعاد أبيض .. وهو الكتاب الثانى فى المكتبة العربية الذى تقوم بتأليفه ابنة عن أبيها وكان الكتاب الأول فى هذا المجال هو كتاب « أبى عزيز أباظة » الذى قامت بتأليفه السيدة عفاف عزيز أباظة قرينة الكاتب الروائى الكبير ثروت أباظة .

لقد جعلتنى سعاد أبيض أعيش من خلال هذا الكتاب قصة جهاد لفنان عشق المسرح وأعطاه كل عمره .. كما جعلتنى من خلال محاور هذا الكتاب وفصوله أعرف ما لم أكن أعرفه تفصيلا عن رجال الأدب والفن ومشاهير السياسة ـ وبعد فراغى من قراءة هذا الكتاب الممتع عرضا وأسلوبا ومادة .. أتمنى أن يرزق الله كل أديب وكل فنان وكل شاعر وكل عالم .. ابنا او ابنة من طراز هذه السيدة الوفية التى تعيش لتخليد ذكرى والدها الفنان جورج أبيض ووالدتها الفنانة دولت أبيض .. وهى لا تفعل هذا بعاطفة البنوة وحدها .. بل مع هذا بعاطفة العروبة التى تؤصل عبقرية قومها !

البوصـــيرى
امام المـــادحين .. كان من الظرفـــاء السـاخرين !!

تعتبر قصائد البوصيرى صاحب « بردة الكواكب الدرية فى مدح خير البرية » وغيرها من المطولات الشعرية المـادحة فى تراثنا الشعرى من عيون قصائد المديح النبوى التى توالت وتنامت منذ اشراق الرسالة المحمدية .. وبالتحديد منذ أن جلس كعب بن زهير فى حضرة الرسول ينشده لاميته المـأثورة « بانت سعاد » والتى كانت أول قصـيدة فى التاريخ تحظى بلقب « البردة » بعدمـا استحسنها الممدوح الأعظم فخلع على صاحبهـا بردته الشريفـة الطاهرة تعبيرا عن هـذا الاستحسان وقبولا لتوبة الشاعر عن زلة لسان صدرت منه قبل أن يتبين حقيقة الرسالة وصاحبها .

ومهما بدا ديوان الشعر العربى ـ على مدى كل العصـور التي أعقبت الرسالة ـ مفعما بقصائد المديح النبوى تمجيدا للاسلام ورسوله ـ الا أنه ليست هنـاك من قصـيدة أتيح لها التأثير فى وجدانات المسلمين وفى قرائح الشعراء المـادحين مثلما بلغته بردة البوصيرى « الكواكب الدرية » والتي نصبته اماما لجميع المـادحين من قبله ومن بعده .. وليس هناك ثمة دليل على هـذا أكبر من اعتراف شاعر العصر الحديث أو أمير شعرائه احمد شوقى .. فهو عندما دبج رائعته « ريم عى القاع » محاكاة لقصيدة البوصـيرى ونسجا على منوالها .. نفي انه يعارضه أو انه حاول أن يبزه فقـال :

« المادحون وارباب الهوى تبع
لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
والله يشهد انى لا اعارضه
من ذا يعارض صوب العارض العرم »

ولست هنا فى مجال المقارنة أو الموازنة بين مدائح البوصيرى وغيرها من مدائح الشعراء قديما أو حديثا ٠٠ ولكننى أحببت أن أتطرق الى جوانب أخرى من حياة هذا الشاعر وأغراض شعره لم تك محط الالتفاف لأن مدائحه النبوية المتوهجة قد حددت له موقعه فى ساحة الشعر العربى بغير اهتمام بالجوانب الأخرى التى يمكن ان تعطينا صورة لعصره فى القرن السابع الهجرى حيث ولد وعاش وتوفاه الله ٠٠ فقد كان شاعرا كادحا ٠٠ فكها ساخرا يفضح أوضاع عصره وعيوب زمانه ٠٠ وهاأنذا بقدر ما يحتمل المجال احاول ان آخذك فى جولة حول جوانب من حياته وامشاج من شعره قد تجعل النظرة اليه أوسع احاطة والماما ٠

البوصيرى هو محمد بن سعد بن حماد بن محسن بن أبى سرور بن حيان بن عبد الله بن ملاك الصنهاجى انتماء الى قبيلة صنهاجية العربية المشرقية والتى استوطن بعض فروعها المغرب بعد الامتداد الاسلامى هناك ٠٠ والبوصيرى رغم أن مصر هى وطنه مولدا كان حريصا على تأكيد نسبه المغربى مخاطبا من يشكك فى هذا بقوله :

وان يكذب نسبتى جئته
بجبتي الصوف و « در فاسي »

وقد ولد البوصيرى فى بلدة بوصير المصرية فى يوم الثلاثاء الفاتح من شوال عام ٦٠٨ من التقويم الهجرى ٠٠ وفى بدايته حفظ القرآن الكريم واستمع من شيوخ البلدة الى بعض تفاسيره ٠٠ ثم دفعه طموحه الى النزوح الى القاهرة التى تموج بالعلماء والفقهاء

والأدباء .. حيث درس علوم اللغة وعروض الشعر وقرأ كتب الأدب والسيرة النبوية .. واكتشف فى نفسه موهبة نظم الشعر .. ولأنه انغمس بحكم ظروفه فى قاع المجتمع ورأى ما يعانيه الشعب من جور الولاة والجباة والموظفين .. فقد انطلقت قصائده تندد بالرشوة والفساد والاختلاس .. مثل قصيدتـه فى التعريض ببهاء الدين المسردى الذى أوكل اليه الملك الصالح نجم الدين الأيوبى توزيع بضع آلاف من الدنانير على فقهاء الجوامع وطلاب العلم فاحتوى أكثر من نصفها لحساب ذمته الخربة !!

واذا كان البوصيرى لم تتح له ثقافة منظمة متواصلة فى مقر علمى محدد مثل النابغين من أمثاله نظرا لكونه كان يفتقد مورد رزق ثابت يتيح له الانقطاع للعلم والتفرغ له .. وكل ما أتيح له فى فترة استقرار هو أن يفتح له « كتابا » خاصا لتعليم القرآن .. ولكنه لم يحقق له دخلا يقيه التقلب بين المهن .. الا أن كدحه من أجل لقمة العيش لم يعقه عن اكتساب الثقافة من كل مصـادرها المتاحة .. ومن يطالع قصائده فى مقارعة أهل الكتاب تتبدى له ثقافته العميقة الواسـعة والمـامه المحيط بتراث الملل والنحل ، واذا كان قد تعلق بالتصوف .. الا أنه أبى الا أن ينضوى تحت لواء الطريقة التى تبرأت من دعاوى وشطحات الطرق الأخرى .. وكانت تلتزم بمبادىء الشريعة فى تربية مريديها وعندما ذاع صيت البوصيرى كشاعر وفقيه لا يجد عملا ثابتا .. فقد عرض عليـه بعض أصحاب النفوذ أن يتولى وظيفة « المحتسب » لمدينة القاهرة وهى تعادل الآن وظيفة مدير مصلحة الضرائب .. ولكنها فى عصره كانت مهمتها الجباية قسرا وتحصيل المكوس بالحق والباطل .. ولكنه رفض هذا المنصب لمعرفته بمدى ما يقترن به من اذلال للناس بما يصوره هو نفسه بقوله :

« لا تظلمونى وتظلمـوا الحسـبة

فليس بينى وبينهـا نسـبة

غـيرى فى البيـع والشراء درب
وليس لى فى الحـالتين دربـة
تالله لا يرضى فضـلى ولا أدبى
ولا طبعى عـن هـذه السـبه
أجلس والنـاس يهرعـون الى
فعلى فى السـوق عصبة عصبة
أوجـع زيـدا ضربـا وأشـبعه
سـبا كـأنى مـرقص الدبـة
ويكسـب الغيظ مقلتى وخـدى
احمـرارا كزامـر القربـة »

ثم هو قبل كل شيء ليس الا شاعرا وليس له غير أن يسخر موهبته فى نظم الشعر مؤكدا :

« ما سـوى حرفة الكتابة لى من
وطـر ابتغـى ولا أربـه
والشـعر ميزانـه أقومـه
وليس تنقـام لى منه حدبـة
والشـعر عندى أخو العدالة لا
أحسـب أموالـه ولا كسـبه »

ولكنه أمام ظروف المعيشة القاهرة اضطر الأن يتنازل عن عناده فى رفض الوظائف لما كان يقترن بها من جور فى ظل أحوال القرن السابع الهجرى فى مصر .. وقبل وظيفة كتابية فى مدينة « بلبيس » وقد أغنت هذه الوظيفة خبرته بشئون الوظائف وفساد الادارة فانطلقت زفراته الشعرية تصرخ مطالبة بالاصلاح :

« انظـر بحقـك فى أمر الداوين
فالكل قد غيروا وضع القوانين
لم يبق شيء على ما كنت تعهده
الا تغير من عـال الى دون

الكـاتبون وليسـوا بالكـرام فما
منهم على المـال انسـان بمامون »

كما يقول فى قصيدة اخرى :

« ثـكلت طـوائف المستخدمينـا
فـلم أر فيهم رجـلا أمينـا »

الى أن يقول :

« وجـل النـاس خـوان ولكـن
اناسـا منهـم لا يسـترونا »

ويبدو أنه لم يستمر طويلا فى وظيفته الكتابية نظرا لطبيعته كشاعر لا يستطيع أن يمسك لسانه .

وعاد الى طريـق الشـظف والمسغبة من جديد وكان يعول أسرة كثيرة الأفواه ولم يكن كذلك على وفاق مع زوجه مما يصوره فى هذه الأبيات :

« وبليتى عـروس بليت بمقتهـا
والبعـل ممقـوت بغـير قيـام
جعلت بافـلاسى وشـيبى حجـة
اذ صـرت لا خـلفى ولا قدامى
بلغت من الكبر الغنى ونكسـت
فى الخـلق وهى صبية الأرحـام
ان زرتهـا فى العـام يوما انتجت
وأتت لسـتة أشـهر بغـلام
اصبحت من حمـلى همومهم على
هـرمى كـأنى حـامل الأهرام »

وقد اضطره الفقر والحرمان الى أن يبث شكايته لأحد الكبراء ناشدا عونه مصورا بؤس عياله :

« صـاموا مـع النـاس ولكنهم
كانـوا لمـن ابصـرهم عبـرة

ان يشربوا فالبئر زير لهم
ما برحت والشربة الجرة
لهم من الخبيز مسلوقة
فى كل يوم تشبه النشرة
فارحمهمو ان عاينوا كعكة
فى كف طفل أو رأوا تمرة
تشخص أبصارهموا نحوها
بشهقة تتبعها زفرة »

وللبوصيرى قصائد طريفة كثيرة فى هجاء الأوضاع الاجتماعية الفاسدة فى القرن السابع الهجرى وفى الذين يأكلون الأموال بالباطل ويتظاهرون بالورع والتقى .. ويمكن لمن يعكف على هذه القصائد أن يستخلص منها أكثر من دلالة سياسية واجتماعية عن أحوال مصر فى القرن السابع الهجرى .. وربما تكون أبلغ مما جاء فى مؤلفات ابن اياس والمقريزى وغيرهما .. واذا لاحظنا أن قصائده الساخرة فى نقد المجتمع وأحواله ليست من حيث البلاغة والقيمة الأدبية — على مستوى قصائده الجادة فى المديح النبوى فعلينا أن نقيم هذه القصائد على ضوء أسلوب العصر .. حيث السجع والبديع والمزخرفات لنجده شاعرا لا يعرف التكلف وانما يكتب على سجيته المنطلقة بما يجعل صوره الشعرية تقترب كثيرا من الأدب الساخر فى عصرنا وانه — البوصيرى — يقف ندا لأبرز أعلامه .

ومع هذا يمكن القول بأن قصائده فى المديح النبوى .. ومقارعة خصوم الاسلام هى أهم تجلياته الأدبية بلا منازع .. واذا كان قد عانى الكثير من الشدائد وعرف مكابدة الحاجة فان قصائده فى المديح النبوى قد عوضته عن الكثير مما افتقده اذ رفعته الى مصاف الأقطاب وأنزلته فى قلوب الناس منزلة لا تنازعها منازل الوجهاء والثراة .. وظلت الهيبة التى أضفتها عليه هذه القصائد تحف به فى كل مكان الى أن توفاه الله فى أواخر سنوات القرن السابع الهجرى فليرحمه الله بقدر ما نافح عن الاسلام ومجد رسوله .

أمين الريحاني و .. دموع الشعراء !

يروق لى بين الحين والآخر أن أعود من جديد الى قراءة كتاب قديم من الكتب التى كنت قد قرأتها فى مرحلة اليفاعة وتركت فى تأثيرا امتد مداه وعمقه فى تكوينى ومسيرتى فى درب الثقافة .

أفعل هذا لأحدد هل ما زالت فورة التأثير قائمة أم اصبح لى ثمة موقف آخر من محتوياتها بعد أن توالت التجارب والقراءات والخبرات كما أفعل هذا هربا من طغيان كتب هامشية و « هاموشية » تملأ الساحة طنينا بدون أن تقدم خبزا .. أو ان تصنع مناخا غير اندياح مفاهيم الترخص والاستسهال وانتهاك حرمة الثقافة واستباحة محراب الفكر .. وتدنيس حقول الابداع !!

وأحدثك اليوم عن كتاب عدت لقراءته ــ بعد أن مضى على القراءة الأولى اكثر من أربعة عقود من الزمان .. هذا الكتاب كان عنوانه « أنتم الشعراء » للأديب اللبنانى أمين الريحانى مؤلف هذه الكتب : « الريحانيات » بأجزائها الأربعة و « ملوك العرب » و « تاريخ نجد الحديث » و « زنبقة الغور » و « النكبات » وغيرها من كتب قد تكون فاتتنى قراءتها .. والحق اننى كنت مفتونا فى هذه المرحلة ــ مرحلة اليفاعة ــ بهذا الكاتب ودعوته الى القوة من خلال افتتانه بالحضارة الغربية المتقدمة والغالبة ــ وكان ينعى على الشرق بمختلف أممه واقطاره تخلفه وضعفه واستكانته الى موروثاته يجترها .. ولهذا كان يصرخ مناديا بأن يستبدل الشرق الخانع الراكد ــ كما كان يراه ــ حكمته وفلسفته وروحانياته وبالبوارج والطائرات والمصانع والمعامل .. ولم يكن الريحانى متفردا فى هذا الموقف .. وانما كان رمزا واضحا لمجموعة من الكتاب

العرب ٠٠ خلبتهم الحضارة الغربية وكان موقفهم ينطوى على فهم ساذج أو قاصر فى ادارك معنى الحضـارة وعواملها الباطنة التى تدفع الأمم والشعوب الى التقدم فى مدارج الرقى سلوكا وانجازا ٠٠ بل لقد فاتهم ان يدركوا أساسا أن تراث الشرق الروحى والفكرى هو الذى استهدت به الحضـارة الغربية فى مدارج نهضتها ومكنها من أن تقيم توازنا بين العقل والوجدان قبل أن تتجه هذه الحضارة بعد ذلك الى تغليب المـادة على نوازع الروح ٠٠ مما أشقى الانسان المعاصر لضمور روحه أمام تضخم عقله !! ويبقى للريحـانى دعوته الى يقظة الشرق والعرب وكفاحه ضد الانتداب الفرنسى ٠

وأعود الى هذا الكتاب « أنتم الشعراء » الذى كان قد صدر فى عام ١٩٣٢ من منشـورات « مكتبـة الكشاف ومطبعتها » فى بيروت ٠٠ اول ما يطالعنا فى هذا الكتاب هذا القول لأمين الريحانى : « فى هـذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة المترهلة — بل القلوب المـائعة الذائبة ٠٠ قلوب تذوب كلما ناح الحمام ٠ قلوب تميع كلما اهتز الورد فى الأكمام ٠ قلوب تسيل هياما كلما تلألأت شمس الأحلام ٠٠ قلوب مائعة ذائبة على الدوام — قلوب تذوب كلما هبت ريح الصبا ٠ تذوب فى الليالى المقمرة — وعند كل ساقية أو غدير ٠٠ تذوب فى رابعة النهار لرنة عود أو لأنه من أنات « يا ليـل » قلوب تذوب فى ظـلال الصفصـاف ٠ وتذوب أمـام الفونوغراف — قلوب شرقية مائعة على الدوام ٠ ونحن فى زمن الحديد والكهرباء ! ان حاملى هـذه القلوب لأعجز فى المحن والنكبات من فراخ القطا ٠ والأجبن من صغار الأرانب ٠ وما اسرعنا وهـذه قلوبنا الى الشكوى والأنين الى التلهف والتأوه والنواح — ما اسرعنا وما اشد صراخنا فى ميدان الندب والنحيب ٠ كأننا فى مندب دائم ! ؟؟

وكان أمين الريحانى قد قال هذه العبارات التى أوردها فى مستهل هـذا الكتاب فى محاضرة له بمدرسة البنات الأهليـة فى

بيروت ·· ثم أعاد ليكرر نفس المعنى بصـورة أخرى فى محاضرة تالية له فى الجامعة الوطنية بمدينة عالية : « اننا والحق يقال أكثر بكاء وأشـد انتحابا من الدموع والأسى ·· كأننا كونا من أنفاس النوادب وجهشـات الثـكالى ·· انه لمرض يفوق انتشـارا كل امراضنا ـ وهو أشد خطرا على سلامة الأمة وعافيتها · بل هو الوباء الأخبث · لأنه يفعل بالعقول والقلوب ما لا تفعله أحكام الظلم وشرائع الاستبداد » !

وبعد استطراد على نفس الوتيرة نراه يحدد السبب ليقذف الاتهام فى وجه الشعراء قائلا : « وما السبب يا ترى فى هذا التلاشى المعنوى الروحى ؟ والذى يحل بقلوبنا ؟ ما هى ضربتها ؟ قلب شاعر مكسور أن قلوب الشعراء ·· من زجاج · أو اكثرهم يتمنون منها ما يكفى الحياة الشعرية فى كل أدوارها · فاذا انكسر قلب من هذه القلوب فصرخ صاحبه وصاح وآن وناح ـ وارسل نواحه وأنينه فى قوافيه ـ أيجب علينـا ان نصيح وننوح مثـله » ؟ ثم يختتم الحديث بقوله : كفكفوا دموعكم ـ أرفعوا قلوبـكم واعتقوهـا من العواطف الصبيانية السرابية · ولا تستسلموا الى كل ناحب نواح مهما طاب نواحه ونحيبه ! » !

واذا كان الريحانى هو صاحب شعار « قل كلمتك وامشي » وكان هـذا موقفه عندما زار مصر عام ١٩٢٢ واقيم له حفل تكريم شارك فيه كبار الأدباء والشعراء مثل أحمد زكى وأمير الشعراء أحمد شوقى وأحمد رامى ومصطفى عبد الرازق وسليمان البستانى ونمر فارس وخليـل مطران وحسـن القاياتى ويعقوب صروف وغيرهم ـ وفى هذا الاحتفال القى خطبة عنوانها « أنا الشرق » وترددت فيها عباراته الساخطة مثل « أنا الشرق عندى فلسفات ·· فمن يبيعنى بها طيـارات ـ ·· الخ » واكتفى بأن قال كلماتـه ومشى ·· بدون ان يعبأ بالذين حملوا عليه بعد القائها فى الصحف

والمحافل ٠٠ الا أن ما قاله فى لبنان عندما جوبه بحملة عليه جعلته يقف هذه المرة مواجها للدفاع عن رأيه ٠٠ وجاءت بقية فصول كتابه « أنتم الشعرا » دفاعا عن موقفه وتوضيحا له وتفنيدا للمقولات التى رددها خصوم رأيه ٠٠ لكونه أنكر وجود الآلام وجدف على المقدس منها ـ هذه تعبيره الساخر ـ وهى دموع الشعراء ـ وأنطلق يفسر موقفه ليفرق بين الشعر الذاتى المريض ـ والشعر الانسانى ـ واستشهد على الشعر الانسانى الحى ببعض قصائد المعرى فى مواجهة الشعر الخانع مثل ما قاله له أحد الشعراء :

واذا عصانى الدمع فى
احدى ملمات الخطوب
اجريته بتذكرى
ما كان من هجر الحبيب

أو ما قاله المتنبى :

شيب رأسى وذلتى ونحولى
ودموعى على هواك شهودى

وظل الريحانى فى هذا الكتاب « أنتم الشعراء » يعزف نفس اللحن من خلال تنويعات مختلفة واستشهاد متباينة ليعود الى القول « لا أظنك تجد من الدموع فى شعر الأمم الأوروبية كلها مقدار نصف ما عندنا فى الشعر العربى » ويصرخ من جديد : القوة ٠ ثم القوة ٠٠ ثم القوة !

ثم اختتم كتابه هذا بفصل عنوانه « خمس عشر وصية للشعراء » وكانت هذه الوصايا بمثابة بيان ـ كما نقول فى تعبيراتنا الآن ـ عن موقفه من الشعر كما يريده وجاءت هذه الوصايا هكذا بنصها :

١ ـ حرروا صناعتكم من « قفا بنك » و « سائق الأظعان » ان عندكم اليوم الطيارات لتسوقوا النجوم ٠

٢ ـ حرروا أنفسكم من القيود التى تحول دون الابداع والتجدد • ودون الصـدق فى الشعور والحرية فى التفكير •

٣ ـ خذوا أبياتكم ـ مجازكم واستعارتكم ـ من لوح الوجود ومن الحياة • لا من الكتب والدواوين •

٤ ـ ليكن فى خيالكم حقائق كونية وبشرية • وليشع من هذه الحقائق الخيال •

٥ ـ انظروا الى الكون من خلال أنفسكم الشاعرة الباصرة • ولا تنظروا الى أنفسكم من خلال الأوهام • الشاعر صوت ونور • وما فيه سـوى ذلك هو باطل زائل •

٦ ـ لا تسرفوا فى البيان • ولا تطنبوا فى بث لواعج النفس • فان من أفصح الكلام الوقف • ومن أبلغ المعانى الاشارة بل السكوت •

٧ ـ حافظوا على التناسب والتوازن بين الصيغة والمعنى • وبين القالب والروح • اذا كنتم طائرين مثـلا ليكن القول خفيفـا مجنحا • واذا كنتم متألمين أو ناقمين لتكن الأمواج اللغوية من ذوب الحديد •

٨ ـ تجنبوا السخافة فى الفـكر والوصف • وفى الصـور الشعرية والخيال •• لا تسخروا القمر والشمس مثلا لمـا سخرهما قبلكم الف شاعر وشاعر •

٩ ـ لا تدخلوا المواضيع من الأبواب التى دخلها قبلكم جميع الشعراء المقلدين • فتتعثرون بخطاهم • ولا تنجون من قبورهم •

١٠ ـ ليكن لقصائدكم بداية ونهاية فلا تقرأ طردا وعكسـا على السواء •

١١ ـ لا تعصروا قلوبـكم كأنكم تتعملون رقـة الشـعور • ولا تعقدوا أفكاركم كأنكم تتعمدون الغموض والايهام •

١٢ ـ تحروا البساطة والصـدق والاخلاص • فكرا وصناعة وخيالا •

١٣ ــ لا تنسوا وطنكم فى حبكم الانســـــانى . ولا تنسوا الانسانية فى نزعاتكم الوطنية ٠

١٤ ــ أرفعوا للنــاس مشــاعل الاباء والشرف ٠ والقوة والعدل ٠ والشجاعة والثبات ٠ والأمل والايمان ٠

١٥ ــ وقبل كل شيء ٠ وبعد كل شى كفكفوا دموعكم ــ كفكفوا دموعكم ٠ فالشمس لاتزال لكم ٠ والقمر لايزال رفيقكم ٠ والربيع لا يخونكم !

مصـــر فى عين ابن بطوطـــة !

منذ القدم وعلى مدى تاريخها الموغل فى أحشاء الزمن ·· عاشت مصرنا كنانة الله وطن حضـــارة متأصلة متجددة ·· ومورد رزق سابغ مكفول ، ومنهل علم سابغ مبذول ، أرض كرم مطبوع وضيافة مفطورة ، يأتيها من ينشد العلم ميسورا فيجد فى حواضرها وعند أساطينها المعرفة متاحة غير محجوبة ·· ويفد اليها من يبتغى الرزق موفورا فيتدفق له فيض خيرها ·· ويهرع اليها من يتوخى الاسترواح والانتجاع فتعطيه ســلام البدن وصفاء الروح ويلم بها من تسوقه نوازع الاكتشاف فتقدم له حكمة التاريخ وفلسفة الزمـــن ·

وفى كل الأحوال هى مغدقة غير ضنينة وفى كل الظروف سخية غير مانعة · ممتنة غير منانة ·· تبذل كأنها الآخـــذة ·· وتلهج بالشكران كأنها الممنوحة وليست المـــانحة ·· وهكذا أبناء الأصول ، من يأخذ منهم فكأنمـــا أعطاهم ، ومن ينل منهم فكأنمـــا تفضـــل بالانعام عليهم ·· فكل من جاءها بسلام غير باغ ولا عاد قدمت له فطرتها الحضارية الأصيلة كل ما يتوق اليه بتلقائية أن هـــذا حقه ، وأن ذلك فى المحل الأول هو واجبها !!

واعظم خاصية حباها الله بها أنها تذيب الفواصل بينها وبين من يفدون اليها من أرض الله الواسعة · اذ سرعان ما يتشرب هؤلاء روحها · وتسكب فيهم سرها ، وليس هنـــاك من احد أكل خبزها وملحها وأحس بالغربة أو شعر بالاغتراب فيها ، ففى بوتقة مصريتها تنصهر كل الأجناس وتمتزج كل القسمات وتتوازن كل المناسيب

والمستويات فلا يبين بين ثراها من يمكن أن يقال له الغريب بهـذا ينطق تاريخها وبه يشهد كل الذين خالطوها وكتبوا عنها فى مختلف العصور والأزمنة . وما أكثرهم ما رماها أحدهم بنقيضة ولا سبها بمذمة أو كبيرة .. وهذه السطور هنا مجرد وقفـات عابرة عند صفحات من أوراقهم عن مصرنا القديمة .

كانت مدينة الاسكندرية هى أول حاضرة مصرية يحط بهـا ابن بطوطة قادما من طنجة عبر بلدان المغرب العربى الكبير مراكش والجزائر وتونس وليبيا ، وقد وصلها غداة الفاتح من جمادى الأولى عام ٧٢٦ هجرية الخامس من أبريل سنة ١٣٢٦ ميلادية .. وكان هذا الثغر وقتها من أهم أمصار العالم قاطبة .. فهو قلب حركة التجارة العالمية وعمدة موانى البحر الأبيض المتوسط .

وقد خلبت الاسكندريـة بجمالها ومفاتنها لب ابن بطوطة فطفق يصفها بقوله :

هى الثغر المحروس والقطر المـأنوس .. العجيبة الشأن الأصيلة البنيان .. بها ما شئت من تحسين وتحصين .. ومآثر وميادين ، كرمت مغانيها ولطفت معانيها . أما مبانيها فهى الفريدة تجلى سناها والخريدة تتجلى فى حلاها الزاهية بجمالها المغرب الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب .. فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة اليها انتهاؤها .

لم يقل ابن بطوطة هذا عفو الخاطر بمجرد النظرة الخاطفة .. ولكنـه كان تقريرا وصفيـا وليد التجول الدارس والمشاهـدة الراصدة .. فقد طاف بأرجائها وربوعها وانطلق يحدثنا معجبا مفتونا عن عجائبها مثل المنار والميناء وأبوابها الأربعة .. الشهيرة : باب سدرة وباب رشيد وباب البحر والباب الأخضر الذى يعطينـا عنه معلومة تاريخية فيذكر لنا عنه أنه كان يظل مغلقا طوال أيام الأسبوع لا يفتح الا يوم الجمعـة ليكون طريقا الى زيـارة قبور

الموتى ٠٠ أما ميناء الاسكندرية الذى وصفه بأنه المرسى العظيم الشأن فهو عنده لا مثيل له فى العالم الا عددا محدودا من المراسى العالمية فى بلدان الهند والترك والصين ٠٠ وقد وصف ابن بطوطة منار الاسكندرية بأنه يقوم على تل مرتفع وانه بناء مربع سامق فى الهواء وبابه مرتفع على الأرض وازاء هـذا الباب المرتفع بناء يماثل ارتفاعه وقد وضعت بينها سقالات خشبية للوصول الى هذا الباب ٠ فاذا رفعت لايمكن الوصول اليه وداخل المنار توجد بيوت كثيرة ٠٠ وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة واربعون شـبرا ٠

وقد ذكر لنا ابن بطوطة أنه فى زيارته الأولى وجد أحد جوانب المنار متهدما وعندما زاره مرة أخرى فى رحلة العودة الى وطنـه عام ١٣٤٩ وجده « قد استولى عليه الخراب بحيث لايمكن دخوله أو الصعود الى بابه ٠٠ وكان الملك الناصر رحمه الله شرع فى بناء منار مثله بازائه فعاقه الوقت عن اتمامه » ٠

أما عمود السـوارى فقد عده ابن بطوطة ضـمن عجـائب الاسكندرية وطرائفها٠ وقد وصفه بأنه عمود رخامى شاهق يحيط به النخيل ويفوق هو أشجاره فى ارتفاعها ٠ وانه قطعة واحدة أحكم نحتها أقيمت على قاعدة من الحجارة المربعة ٠

ولم تبهر الاسكندرية رحالتنا بمجرد منارها ومرساها وعمودها وابوابها ، بل بهرته كذلك بعلمائها وأوليائها واهل الكشف فيهـا وكونها كانت تغص بهؤلاء العارفين على أيامه ، وأصحاب الكرامات فهو يسعى اليهم راغبا ومحبا يلتمس البركة ساعيا الى التقرب الى الله عن طريقهم ٠٠ فهو مثلا يصف لنا الشيخ ابا عبد الله الفاسى بأنه من عمداء الأولياء ويذكر لنا عنه أنه يسمع رد السلام عليه عندما ينتهى من صلاته ومن ضمن ما يذكره لنا من كرامات هؤلاء

الأولياء أنه التقى العابد الزاهد برهان الدين الأعرج . ولم يكن فى خاطر ابن بطوطة وقتها أن يتوغل فى البلدان القاصية مثل الصين والهند ولكن الشيخ ابتدره بقوله .. أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد ، وما ان أجاب ابن بطوطة مؤقتا على كلامه حتى قال له الشيخ لابد لك ان شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين . فاذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام .. وعجب ابن بطوطة وقتها من قوله ، ولكنه لقى الثلاثة بعد ذلك فعلا خلال تجواله فى تلك البلدان .. ومن الاسكندرية يسرد لنا واقعة لها دلالتها التاريخية التى تؤكد حرص مصر دائما على حماية الأجانب بها مهما كانت الاعتبارات وأحيانا يتحيز لهم حكامها على حساب الشعب ذاته ، فقد وقعت أيامها مشاجرة بين بعض تجار الافرنج وأهالى الاسكندرية فما كان من حاكمها الا أن تحيز لهؤلاء الأجانب وعاقب أبناء البلد وحدثت ثورة من جراء ذلك .

ومن الاسكندرية يمضى ابن بطوطة الى دمنهور مواصلا تجواله ، وقد وصفها بأنها مدينة كبيرة جباياتها كثيرة ومحاسنها اثيرة وانها كذلك أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذى عليه مدار أمرها ومن دمنهور وصل الى بلده فوة التى وصفها بالحسن والفوائد الجمة وكثرة البساتين بها .

وما كان يمكن أن يتواجد ابن بطوطة بهذه الناحية وتفوته هو الشغوف بمزارات الأولياء الحريص على أن يحظى بالبركة من لدن كل ولي حى أو ثاو فى ضريحه زيارة زاوية الشيخ عبد الله المرشدى الذى نعته بالعابد المنقطع الذى ينفق من الكون وهو يعنى بذلك أن حاجته تأتيه من عند الله فلا حاجة بم الى السعى وراء الرزق أو طلب العطاء من أحد . وهذه الصوفية مرتبة لا يصل اليها الا الخاصة أصحاب الغوث . ويحدثنا ابن بطوطة عن هذا الولى الذى ينفق من الكون ان الكبراء والوجهاء وعامة الناس كانوا يقصدون زاويته

فى ناحية بنى مرشد .. وهناك يطلب كل منهم ما يشهيه من طعام فيأتيهم صاحب الزاوية به . مهما كان نوعه ومهما كان عددهم .

وعندما قصده صاحبنا وجد من لدنة اكراما وفضلا .. ثم تأكد يقينه لكرامته عندما بات فى الزاوية . وراى مناما . فى الصباح وقبل أن يتفوه بكلمة اذ بالشيخ يكاشفه بالمنام وتفاصيله . ثم يفسره له . ثم توطد هذا اليقين بكرامة هذا الولى بعد ذلك عندما كان ابن بطوطة فى الهند فى طريقه الى الصين سفيرا من السلطان محمد تغلق يحمل هدية الى ملك الصين لاسكات فمه مقابل عدم السماح له ببناء معبد بوذى فى أرض تعتبر اسلامية ، وكان الملك قد استأذن السلطان لاعادة بناء هذا المعبد ليؤدى فيه أبناء الطائفة شعائر عبادتهم ويحجون اليه فى موضع يسمى (مهل) وهناك تعرض ابن بطوطة لغارات قطاع الطرق الذين سلبوه ما معه ثم استجزوه . وعندما هرب منهم وقع فى يد عصابة أخرى أطلقت سراحه . ولكن ضل الطريق وكاد يموت من الجوع والعطش وبينما هو كذلك يخرج له رجل ورع أسود اللون فيحمله على كاهله ويرعاه الى أن يسترد عافيته ، وكان هذا الرجل هو الصوفى الزاهد دلشاد الذى قال عنه الولى عبد الله المرشدى لابن بطوطة بأنه سوف يلقاه وسوف ينقذه من ورطة يقع فيها .

الأهرام .. قبل طوفان نوح

وبعد تجواله فى مدن الوجه البحرى اتجه ابن بطوطة الى القاهرة العاصمة ويسميها مدينة مصر وهى التسمية التى لصقت بالقاهرة الى وقتنا الراهن .

ثم وصلت الى مدينة مصر وهى أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد .. ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية فى كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر ومحط الضعيف والقادر وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل

وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتموج موج البحر بسكانها تكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها وشبابها يجد على طول العهد وكوكب تغديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم ، ولها خصوصية النيل التى جل خطرها واغناها عن ان يستعبد القطر قطرها ·· وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة ·

أما نهرها الذى عصمها من أن يستعبد القطر قطرها فقد قال عنه انه يفضـل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع عرض وعظم منفعة وليس فى المعمور مثل مدنه وقراه المنتظمة على ضفافه وليس فى الأرض نهر يسمى البحر غيره ·· وانه أعجب أنهار الدنيا لأن مجراه من الجنوب الى الشمال قد خالف جميع الأنهار ·

ومن عجائبه كذلك عند ابن بطوطة أنه يفيض عند اشتداد الحر على عكس الأنهار الأخرى التى تجف وتنقص عند زيارة الحر · وان ابتدا النقص ولا يشبهه فى ذلك الا نهر واحد هو نهر السند ، وهو يحدد شهر يونيو بداية لفيضان النيل ، ويذكر ابن بطوطة ان الخراج لا يتم الا اذا وصلت الزيادة فى منسوب المياه الى ست عشرة ذراعا واذا فاض عن ذلك ذراعا واحدة لاغير (وكان الخصب فى العام والصلاح التام) ولكنه اذا بلغ ثمانى عشرة ذراعا تحرك الفيضان الى نقمة تضر الزرع والانسان والعمران ·

وكذلك اذا نقص ذراعين من الست عشرة ذراعا حدث القحط وعمت المجاعة ولا يفوت ابن بطوطة خلال وجوده بالقاهرة أن يلاحظ ظاهرة شغف أهل مصر بالمرح واللهو والطرب ، كما يستلفت نظره كثرة المدارس ودور العلم تلك التى لا يمكن أن يحيط أحد بحصرها لكثرتها ثم يبدى اعجابه البالغ بالمارستان العظيم القائم فى بين القصرين عند مقبرة الملك المنصور قلاوون ·· وقد قال فيه وهو يتحدث عن تجهيزه وأقسامه ومرافقه وفنون العلاج والدواء به ان

الواصف يعجز عن تبيان محاسنه ثم يسهب فى وصفه لقرافة مصر حيث مدافن بعض الصـالحين وبعض آل البيت وبعض الصحابة والتابعين ، كما يحدثنا عن عادات أهل القاهرة للمبيت فيها يوم الجمعة تبركا بالمدفونين فى ثراها ، كما يذكر أن القرطبى اخرج أثرا عن طهرها فهى ضمن الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة ٠

أما أهم ما استلفت نظره اتفاقا مع طبيعته الخاصة فهو الزوايا الكثيرة المنتشرة فى تلك المدينـة وكانت تسمى الخوانق ، ويتبارى كبراء مصر فى اقامتها ، وكل زاوية تخصص لطائفة من طوائف أهل الطرق والدراويش خصوصا الأعاجم منهم ٠٠ كما وصف لنا ابن بطوطة نظام الصرف على هذه الزوايا واعاشة النازلين بها حيث تصرف الجراية من الخبز واللحم والمرق مرتين فى اليوم ، ولكل واحد كسوة فى الشـتاء واخرى فى الصيف ، كما أن له راتبـا شهريا ، وجراية من الصابون ومنحة من الحلوى كل يوم جمعة ٠

أما اهرام مصر فيحكى لنا ابن بطوطة حكاية طريفة عن اصـل بنائها ٠٠ فهو يذكر أن أحد ملوك مصر فى عصر ما قبل طوفان نوح قد رأى فى نومه رؤيا فحواها أن يبنى الأهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعا للعلوم ومثوى لأحداث الملوك وعندما شرع فى تنفيذ الرؤيا أشار عليه المنجمون بأن يفتح منها موضعا فى الجانب الشمالى عينوه له بالتحديد ٠٠ وان البناء قد استغرق اتمامه ستين عاما وما أن فرغ منه حتى نقش عليه هذه العبارة ٠ بنينـا هـذه الأهرام فى ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك فان الهدم أسـهل من البناء ٠ كما يورد ابن بطوطة ان المـأمون قد أراد هدم الأهرام ولكن بعض مشايخ مصر حذروه مغبة ذلك ، ولكنه امر بأن تفتح من الجانب الشـمالى فرميت بالمنجنيق بعد أن رشوا عليها الخـل واوقدوا فيه النار حتى فتحت الثلمة التى بها الى اليوم ٠٠ ويذكر

ابن بطوطة انهم وجدوا بازاء النقب مالا ، وعندما وزنه الخليفة وتم تثمينه وجده يعادل تماما بلا زيادة ولا نقصان ما أنفق فى عملية النقب !

أنت الخصيب وهـذه مصر

ويمضى بعد ذلك الى الصعيد فى طريقه الى قوص ومنها الى ميناء عيذاب ليتجه الى بيت الله الحرام ٠٠ ولا يفوته أن يحدثنا وهو يسلك طريق السفر عن الرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء فى بقعة كانت تسمى دير الطين ، وهو دار السلام الحالية ، وهو يصف لنا هذا الرباط الذى بنى على مفاخر عظيمة وآثار كريمة ٠

وقد ذكر لنا بعض محتوياته المقدسة ومنها قطعة من قصعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، والمرود الذى كان يتكحل به ، والمبر الذى كان يخصف به نعله ٠٠ كما ذكر أن الرباط يضم كذلك نسخة خطية لمصحف عثمان مكتوبة بيده الكريمة رضوان الله عليه ٠٠ ولا ينسى ان يذكر لنا ان الصاحب تاج الدين قد ابتاع هـذه الآثار بمائة ألف درهم ٠

وعندما يصل الى مدينة المنيا الحالية ، التى عرفت بهذا الاسم من قديم ، ولكنها على أيامه كانت تسمى (منية ابن خصيب) ولهذا قصة يسردها علينا ٠٠ فقد قيل ان الخليفة المأمون قد غضب على اهل مصر ، فعمد الى اذلالهم بأن ولى عليهم عبدا من عبيده كان مكلفا بتسخين حمامه ، وتلك مهمة من أحقر مهمات العبيد ، وكان الخليفة يستهدف بها الحط من كرامة مصر بجانب أن خصيب العبد عديم الأصل كان المتوقع منه شأن العبيد أن يكون غليظ القلب فينكل بأهلها ، ولكن الخصيب كان على النقيض من ذلك ، وكان جوادا كريما يقصده الشعراء وأقارب الخليفة فيجدون لديه العطاء والرفد ٠ وقد مدحه الشعراء ومدحوا مصر ،

وعرف الخليفة بما ينهجه واليه ، فأمر بالقبض عليه وفقأ له بصره وجرده من كل شئ فأصبح شحاذا يتسول فى أسـواق بغداد وامام مساجدها ٠٠ ولكنه ساعة القبض عليه كان قد تمكن من اخفاء ياقوتة عظيمة فى تلافيف ثيابه ، ومرة صادفه أحد الشـعراء وهو يستجدى الناس فأفضى اليه الشاعر بأنه كان قد أعد قصيدة يمدحه فيها أيام عزه ولكن تجريده تم قبل أن يدركه وطلب منه الشاعر أن يسمعه تلك القصيدة ، فقال له الوالى المخلوع كيف بسماعها وأنا على ما ترى ! فأجابه الشاعر بأنه لا ينبغى الآن عطـاء انما قصـدى سماعك لها ، واما العطاء فقد أعطيت الناس كثيرا وأجزلت جزاك الله خيرا ٠

ثم أنشده الشاعر القصيدة المشهورة التى تقول :

أنت الخصـيب وهـذه مصر

فتدفقـــا فكلاكمـــا بحـــر

وما أن فرغ الشاعر حتى طلب منه الخصيب أن يفتق من ثوبه الموضع الذى خيطت عليه الياقوتـة والح على الشـاعر أن يقبلها ، فأخذهـا وعندما عرضها فى سـوق الجواهر لم يجد لها مشتريا فهى أعظم من أن يقتنيها أحد غير الخليفة ذاته ٠٠ ورفع أمر الجوهرة الى المـأمون ، وعندما عرف من الشاعر مصـدرها ندم على ما فعله بالخصيب الذى يمدح فيكافىء المـادح بياقوتة ، بينما هو يتسول ما يقتات به ، ثم أمر باستقدامه واكرامه وناشده أن يتمنى عليه ، فأبدى الخصيب الرغبة فى أن تعطى له مدينة المنيا ، فأقطعه الخليفة اياها ثم أورثها عقبه الى أن انقطع نسله ٠٠ ومن هنا كانت تسمى منية ابن الخصيب ٠

ويمضى ابن بطوطة فى طريقه الى قوص يحدثنا عن عدد من المدن المصرية الهامة فى طريقه حتى وصل الى مدينة قوص فأفاض فى الحديث عن مكانتها وعلمائها وصلاحها ، والغريب أن ابن بطوطة

الذى اهتم بوصف عجـائب الاسكندرية وتحدث عن أهرامات مصر لم يتحدث بشىء عن آثار الأقصر أو معبد الكرنك ولم يعنه الا ان يشير الى ضريح ولى الله أبى الحجاج الأقصرى ، رغم أن الضريح يقع فى قلب معبد الكرنك ذاته .

ثم انتقل الى أرمنت ومنها الى اسنا ليعبر النيل الى ادفو فى الشرق ثم ينزل بلدة العطوانى ويسلك الطريق الصحراوى الى عيذاب قبالة جده .. ولكنه عند وصوله الى عيذاب يجد أن خلافا قد نشب بين السلطات المصرية وبين سلطات قبيلة البجـاه وأن الحرب قد نشبت بين الجانبين ، مما دعا سلطان البجاه الى أن يحرق المراكب التى كانت ستحمل أفواج الحجاج الى جده .. مما اضطر ابن بطوطة ان يعود عن طريق النيل حتى وصـل الى بلبيس ليذهب الى الحجاز عن طريق الشام .

وقد عاد ابن بطوطة الى مصر مرة أخرى بعد أن أدى فريضـة الحج وارتحل الى أقطار اخرى وقد دخلها عن طريق غزة من ناحية دمياط وزار عدة بلدان مصرية حتى وصل الى الاسكندرية ليجد ان الوباء الذى كان قد اجتاح أوروبا وآسيا وبلدان البحر الأبيض المتوسط علم ١٣٤٨ م قد اجتاح الاسكندرية وكان عدد ضحاياه اكثر من الف فى اليوم الواحد .. ولكنه عند وصوله اليها كانت حدة الوباء قد خفت .. وعندما سافر الى القاهرة وجد أن الوباء كان قد فتك بأهلها (وبلغنى أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها الى واحد وعشرين الفا فى اليوم ووجدت جميـع من كان بها من المشايخ قد ماتوا رحمهم الله تعالى) .

طــــه حســـين
مصــر نبض أيامــه

عندما ما تمر بنا ذكرى رحيله .. يحار القلم فى العثور على نقطة بداية ينطلق منها للحديث عن هذا الرائد المفكر الفنان الفيلسوف صاحب أجمل وأوقع وأرفع أسلوب فى لغتنا الجميلة .. والذى قام على مسرح حياتنا المعاصرة بدور من النادر بل من المستحيل أن نجد له نظيرا عند من نعرف من أفذاذ الأدب وقادته فى تراثنا ، وفى عصرنا ، فهو لم يكن مجرد أديب بين أعلام عصره . بل كان تجسيدا للعصر برمته ممثلا له وفاعلا فيه ، ولا يمكن أن نقيم العصر بدون تداخله فيه انعكاسا عليه وتأثيرا فى مجراه .

من الحق أنه اذا كان رفاعة الطهطاوى العظيم هـذا القادم مثله من أغوار الصعيد بيئة ، ومن قاعه طبقة ، قد أقام لنا الجسور التى تصلنا بالعصر وبالحداثة فيما وراء الحدود بعد أن ران التخلف والجمود طويلا طويلا ، وكان هو وجيله أو تلاميذه همزة الوصل بين ألواح الكتاتيب وبين معامل الجامعة فى حدود ظروفه والمؤثرات التى كانت تحكم دوره ، فان جيل طه حسين وهو بصفة خاصة قد اقتحم قلب العصر بدلا من أن يقف عند مشارفه ، واذا كان دور رفاعة لم يجد مقاومة كبرى وفقا لظروف المجتمع ، حيث كان النظام الحاكم والقوى الجديدة فى العصر تبارك هذا الدور وتحبذه، وكانت القوى التى يمكن أن تناوىء دوره مسلوبة الفاعلية بحكم شمولية النظام وفتوته ، أما دور طه بعد ذلك فقد واجه المقاومة من أكثر من محور ، كان لها جميعا بأسها الشديد ، ولكنه ظل يناضل

تسانده بعض القوى المستنيرة أحيانا ، ووحيدا فى أغلب الأحايين ، ينحنى للعاصفة مرة ، ولكنه سرعان ما ينبرى ليثير العواصف من جديد ، وكان هو فى حياتنا التطبيق الأمثل لشعار رفعه أحد المشاغبين العظام كاتب روسيا مكسيم جوركى ، عندما قذف قولته فى وجه كل الأخطار « جئت الى هـذا العالم لكى أختلف معه وأحاربه » ٠٠ ورغم تمايز دوره ودور جيله عن دور رفاعة وجيله ٠ الا انهما التقيا فى خاصية واحدة هى التوق الى تطوير مصر وتحديثها ، وان كلا منهما أيضا ينتمى الى بيئة الكادحين وان كلا منهمـا كان مغلولا بالفقر ٠٠ ولكنه امتطى الطموح ، وظاهرة فريدة ماثلة فى تاريخنا الحديث أن أغلب رواد نهضتنا فى هـذا العصر هم من الكادحين الذين لم يعرفوا غير مرق الفول النابت يغمسون فيه خبزهم اليابس، وربما يكون هـذا ـ تعبيرا عن خصائص مصر ـ ما أعطاهم الصمود فى وجه الريح والعزوف عن اغراءات مقايضة الكرامة بالنعيم ٠

أما اذا قارناه بشيخ المعرة وفيلسوفنا « أبو العلاء المعرى » من حيث الدور الذى قام به كل واحد منهما فى عصره مفجرا الحوار مع الكون والعالم والاعتماد على العقل وحده حكما فى كل الأشياء ، وكل منهما كان ضحية العاهة التى اغتالت نور بصره ، وكل منهما أيضا عوضه الله عبقرية البصيرة ، فاحتوى الكون وتعامل مع أدق خلجات الوجود بحساسية بالغة الرهافة والنفاذ ، وأنهما تشابها فى خاصية تأكيد قيمة العقل مرشـدا ومرجعا وحكما وفيصـلا فى شئون الحياة ، وان كلا منهما قد حاكم العالم وتعامل معه بكبرياء شامخة ، فان ثمة فارق بينهما كان المعرى متشائما رهين المحبسين ، ولم يحـاول اختراق نطاق القول الى الفعل صحيح أن كلا منهما من حيث السـلوك قد تجاوز عاهته برحابة انسانية ، فلم تشـكل العاهة لأحد منهما عقدة نقص أو نزعه تعال مغرور الا فيما هو صدق الاحساس بالألم فى مواجهة غوغائية تجـاوزت حدود النقـاش فى

الموضوع الى المعايرة بالعاهة ‥ وصحيح ان كلا منهما كان عطاء عبقريا فى فكره ‥ وان أيا منهمـا لم يضف الى الحيـاة تشويها يخدشها ‥ الا أن المعرى اقتعد بيته ، ولكن طه حسين انغمس فى الحياة والعمل والنضال مناجزا عن فكره مطبقا لدعواه ظل المعرى يقتات تشاؤمه رهين المحبسين ٠

وأنطلق طه الى « ما وراء النهر » يركب البحار ويجوب وديان الحضـارة ويمتطى الصعـاب ‥ يطور الجامعـة ويشيع التعليم ، ويصدر الصحف ويغشي المبتديات وينغمس فى السياسة ‥ ويستطيع هـذا الكفيف الفقير ‥ هذا القادم من عزبة الكيلو لا يحمل معه « الا قفة » خبزه الناشف وطائره فى عنقه عاهة معوقة ‥ مهما كان طموح من ابتلى بها ــ فى ظل ظروف مصر أيامها ــ فلن تكون المحصلة أكثر من قارىء فى قرية يرتل القرآن الكريم فوق أضرحة موتاها وفى مآتمها ‥ أو ان أسعده الزمان ووجد واسطة يصبح مؤذنا فى زاوية أو « عريفا » فى « كتاب » ‥ ولكن هـذا المصرى العبقرى يقتحم القاهرة وينخرط فى سلك ازهرها ‥ ويحفر بعد ذلك صخور المستحيل ‥ ولا يقبل دون القمـة مكانا ‥ فيكون أول مصرى ينال درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية بعد انشائها عام ١٩٠٨ ، وبعد أن أنفق فى الأزهر ست سنوات اغترف فيها من علمه ما رواه ‥ ولا يكتفى بهذه الدكتوراه التى جعل موضوعها عن المعرى ‥ فيقتحم بلاد الفرنجة أعزلا ، ويكون أول مصرى ينال درجة الدكتوراه فى الأدب من سربون باريس ‥ وقـد اختار دور ابن خلدون موضوعا لرسالته ٠

التحـــدى والمواجهـــة

ان كتاب الأيام ــ الذى أعتبره أول ترجمة ذاتية بالمعنى الفنى فى أدبنا ــ ليس مجرد صور مكثفة تقدم لنا البيئة والعصر ، وواقع القرية المصرية ايامها وملامح التركيبـة الاجتماعيـة كذلك ‥

والظروف التى انطلقت منها سيرته فى الحياة ·· ولكنى أراه من جانب آخر وثيقة كبرى بالغة الشهادة والدلالة عن عظمة مصر وخصائصها الباهرة وقدرتها المفطورة على التحدى وعلى المواجهة ·· وكان طه حسين برهانها ·· ولم تكن خاصيته التحدى فيه مقصورة على مناجزة الظروف الصعبة ، ولا مقصورة على تحدى الأوضاع الاجتماعية والفكرية السائدة ·· والتى كانت من العتو بما يؤكد أن أية محاولة لمواجهتها كفيلة بأن تقذف من يفعلها لقمة سائغة فى أفواه الغيلان ·· فوق هذا تحدى عوامل الضعف فى ذاته ·· وعوامل الاغراء فى أن تكون له حياة مستقرة تتدثر بالأمن وتتلفع بالرخاء ·· وكان هو تطبيقا لما قاله : « لست أحب للرجل الكريم أن تكون كرامته عادة مألوفة وشيئا يسيرا لا مشقة فيه ·

وانما أحب أن يكسب « كرامته » كسبا ويفرضها على الناس فرضا ·

فحدد الاختيار لنفسك بين الحياة السهلة اليسيرة · الحلوة المواتية وبين الحياة الصعبة العسيرة ·· المرة المجافية » ·

اختار هو منذ البداية الحياة العبة ·· وبهذا رفض أن يقوم بدور محدود·· مهما كان هذا الدور يكفل له الأمن والاستقرار··فبعد أن فصل من الجامعة يكتب اليه المستشرق ماسينيون عارضا عليه أن يعمل فى جامعات أمريكا·· ولكن طه رفض ذلك··لأنه سيكون فى أمريكا أجنبيا··ولن تتاح له المشاركة فى حياة هذا البلد « ولن يكون على الا أن أقوم بواجب محدود » كما كتب هو لسوزان قرينته بعد أن تلقى رسالة صديقه المستشرق ·· وليس هو بالذى يقبل القيام بواجب محدود ·· الم يقل هو فى أحد المؤتمرات الثقافية فى ايطاليا « الكتابة أيضا هى العمل ·· كل كاتب وكل فنان لا يستطيع التقدم الا بالاخلاص شأنه شأن بل دانتى يحمل المصباح معلقا الى ظهره ليضيىء طريق الذين يتبعونه » .

ابناء ((المعذبون فى الأرض)) هم الآن وجه الحضـــارة فى مصـــر

يوم أن كانت مصر بمجموع شعبها تودع جثمان العميد الى مثواه الأخير فى رحاب الله منذ أحد عشر عاما فى الثامن والعشرين من اكتوبر ٠٠ أى نفس الشهر الخالد الذى عبرت فيه مصر لتقول ها أنذا من جديد ، يومها تدافعت الجماهير باحساس الفقد والوفاء وهى تتسابق لالقاء نظرة أخيرة على النعش الذى يحتوى جثمان ابن من أشجع وأخلص أبناء مصر ٠٠ وكان اضافة خلاقة قدمتها تربتها المعطاء لحضارة تاريخها ٠٠ صباح ذلك اليوم سمعت رجلا يقول للواقف بجواره وهو يدافعـه متخطيـا ((لولاه ما تعلمت وما دخلت الجامعة)) كانت الكلمة اعتذارا عن التدافع ٠٠ ولم يجد الآخر غير أن يرد فى تأنيب ((وأنا أيضا يا أخى)) تعبيرا عن حقه هو الآخر فى التدافع اعرابا عن التقدير ٠٠

وكل منهمـا كان محقـا ٠٠ والزحـام شـديد ٠٠ نعم فلولا صيحته الثورية العاصفة التى قذف بها فى وجه الأوضـاع الطبقية الظالمـة فى مصر ٠٠ منادية بأن التعليم من حق كل مواطن فى مصر مثل المـاء والهواء ٠٠ لمـا وجد عشرات الألوف الذين يمثلون الآن وجه مصر الحضارى فرصتهم أبدا فى التعليم ٠

كان منطلق صيحته تلك نابعا من كونه ديمقراطيا عظيمـا وثوريا ارتبط بالفقراء الذين احتواهم عاطفة وفنا وعبر عنهم فى ((شجرة البؤس)) و ((دعاء الكروان)) وفى ((الوعد الحق)) امتدادا فى التاريخ وفى ((المعذبون فى الأرض)) مواجهة للواقع ، فهذا الكتاب الذ صدر فى بيروت ــ بعد أن صادروه فى مصر ــ عام ١٩٤٩ ، وكانت مصر فى قمة الغليـان الثورى حبلى بشىء ما قادم ٠٠ كان من أهم المقذوفات الثورية فى المعركة ضـد القصر والطغيان والاقطاع والظلم الاجتماعى ٠٠ وقد أهداه الى الذين يحرقهم الشوق الى العدل والى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ٠

وأعود الى يوم رحيله ·· أكان القدر يقصدها ·· أن تعبر روحه محيط العالم وقانون المادة ·· الى المطلق ·· الى رحاب الله ·· بعد أن عبرت مصر محنتها واجتازت هزيمتها لتقول ها أنذا مصر من جديد ·· يظنونها بالوهم ماتت ثم تبهر الدنيا بوثبتها ·· خطواته اذن حتى الموت ·· قد تضامت مع خطواتها نحو الحياة ·· بل ان حياته فى جوانبها كانت تجسيدا مصغرا لأمته ·· لتاريخها ولعبقريتها أيضا ·· فرغم ما توالى عليها من ضغوط ·· كانت فى اللحظة المواتية تثب نحو الحركة والفعل فى اتجاه المستقبل وكان هو أيضا التعبير عن خصائصها تلك ·· فهو أحد العظام من عباقرة أبنائها ·· الذين فرضت عليهم الضغوط والقيود ·· ومع ذلك أصبح أستاذا وعميدا لكلية ومؤسسا لجامعة الاسكندرية ورئيسا لمجمع اللغة العربية ·· ووزيرا للمعارف ومحاضرا فى جامعات العالم وممثلا للفكر العربى فى مؤتمرات الدنيا ، ويبدع عشرات الكتب فى الفكر والنقد وتقنين التاريخ والفن الروائى ·· ويسعى اليه كبار أدباء العالم وتمنحه سبع جامعات عالمية الدكتوراه الفخرية ·· ويزهو مصطفى النحاس زعيم الأمة لأن وزارته الأخيرة تضمه بين أعضائها ·· ويخلع عليه ملك مصر لقب الباشوية ·· ويمنحه جمال عبد الناصر أرفع وسام فى الدولة ويختاره رئيسا لتحرير « الجمهورية » صحيفة الثورة ·· وتتلاحق عليه الأوسمة من ملوك العالم ورؤساء جمهورياته · ويعبر بمصر ـ مثل عبورها العظيم ـ ·

وأعود الى لحظة موته ·· اذ عبرت روحه دنيانا بعد ان اطمأنت ـ كما قال حكيمنا ـ الى أن مصر قد عبرت هزيمتها ·· هل أراد القدر أن يربط بينه وبين مصر حتى آخر لحظة من عمره ولترتبط ذكرى أمجاده بذكرى وثبتها المنتصرة ·· الحقيقة تقول انه كان جزءا متبلورا منها وكان أيضا تعبيرا عنها ·· وربما يبدو التناغم أو التوافق بين ذاته وذاتها فى وثبة العبور ذاتها ·· فقد

اقتحمت مصر حواجز محنتها بالأصالة والحداثة معا ٠٠ الأصالة مائلة فى صيحتها غداة الاقتحام « الله أكبر » وكانت تعبيرا تلقائيا عن قرآنها وانجيلها عن محمدها ومسيحها ٠٠ وكانت الصيحة خلاصة تركيبتها تاريخا وتراثا يتمثل فى نزوع حضارتها الى الله دائما ٠٠ والحداثة مائلة فى الدبابة والمدفع والصاروخ ٠٠ اى قوانين العلم والهندسة ٠٠ امكانات العصر ٠٠ وكان هو الرمز لهذا بشخصيته وسلوكه ومواقفه وبكفاحه من أجل تأصيل الشخصية المصرية على محورين هما الأصالة والمعاصرة ٠٠ انتماء للعروبة والاسلام ٠٠ والتقاء أيضا مع حضارة البحر الأبيض ٠٠ فهو فى الوقت الذى يؤصل فيه قيم التراث فى وجداناتنا بواسطة « على هامش السيرة » و « الفتنة الكبرى » و « الشيخان » و « مرآة الاسلام » و « الوعد والحق » ويكتب عن المعرى والمتنبى وابن خلدون ، ويحبب الينا لغتنا الجميلة ، ويقدم الينا أفذاذ كتابها وشعرائها ٠٠ فى ذات الوقت يقدم لنا تراث الاغريق وابداعات العصر الحديث وما يحدث هناك ٠٠ كان يستهدف بكل هذا أن تكون مصر الحديثة ابنة تراثها حتى لا تفقد بوصلة ذاتها وسط خضم العالم ، وأن تكون أيضا ابنة عصرها حتى لا تصبح على هامش التاريخ ٠٠ ٠٠ وألا تتجاوزها قافلة العصر فى مضيها نحو التقدم ٠٠ وكانت حياته تجسيدا لهذا ٠٠ كان هذا هو طه حسين ابن قرية الكيلو ٠٠ حافظ القرآن وهاضم التراث ٠٠ وابن الأزهر وخريج الجامعة وربيب السربون ٠٠ اقدامه دوما فى تربة مصر وتراثه ٠٠ ولكن رأسه تتطلع دائما الى ما هناك ٠٠ الى ما وراء النهر !!

ســــوزان

الشعاع الذى أضـاء أيام العميد !

اذا كان من المؤكد أن هذه المرأة ــ التى رحلت مؤخرا عن عالمنا بعد ما يقرب من سـتة عشر عاما من رحيل عميـد الأدب العربي ــ قد لعبت دورا حيويا بناء فى حياة أديبنا الراحل العظيم طه حسين وهو يمضى بأدبنا وثقافتنا ومؤسساتنا فى طريق التنوير عطاء وفعلا ٠٠ فقد وقفت بجواره مظلة حنان وتشجيع ومساندة وهو يخوض المعارك الضارية التى أرست قيم العقلانية وحرية الفكر وحق العقل فى الاجتهاد والضدية والاعتراض ٠

اذا كان هذا الدور مؤكدا ٠ لا أحد يمارى فيه أو ينكره ٠٠ الا أنه من الصعب أن نعثر على مراجع تعطينا قياسا لمداه ٠٠ فلم تكن سوزان امرأة عامة ٠٠ ولم تكن ذات منصب ٠٠ واكتفت بأن تكون بجواره أو خلفه ٠٠ كما قال لها عمها ساعة أن بارك زواجها به « هذا الرجل سوف يتقدمك باستمرار » اكتفت سوزان بأن تكون فى الظل تربى أولاده ٠ ٠وتكفل له أمنا بيتيا يلوذ اليه من عواصف الخارج وجهامة الأيام ٠٠ ونحن نعرف أن طه حسين لم يتحدث عنها كثيرا فيما كتبه عن نفسه ٠ ولكنـه أعطانا مفتاحا لدورها ٠٠ عندما كان يحكى لابنته أمينة ــ رحمها الله عن أيامه الصعبة ٠٠ قبل أن يأتى هذا الملاك ــ سوزان ــ ٠

ولا يبقى أمامنا مرجعا لدور سوزان فى حياة العميد الا مجرد كتاب واحد يتيم ٠٠ أصدرته سوزان نفسها بالفرنسية فى الذكرى الخامسة لرحيل رجلها ورفيق دربها وشريك عمرها ٠٠ وأصدرته

دار المعارف مترجما الى العربيــة باشراف الكاتب الكبير محمود أمين العالم ٠٠ انه كتاب « معك » بقلم سوزان طه حسين ٠٠ وهو أول كتاب فى أدبنا العربى تكتبه زوجة أديب عن حياتها بجانب رجلها ٠٠ فنحن مازلنا فى العــالم العربى نخجل من الحديث عن حياتنـا الخاصة ٠٠ ونحرص على أن تكون هذه الحياة بمنأى عن الناس خلف جدران البيوت وطوايا النفوس ٠

لقد عرف مكتبتنا العربيــة أدب الترجمة الذاتية على نطاق ضيق محدود منذ العصر العباسى حتى الآن ٠٠ حيث تطالعنا كتابات حنين بن اسحاق وابن الهيثم وابن سينا والرازى والجاحظ والحلاج وابن حزم وذو النون المصرى والغزالى وابن عربى وابن الفارض والشعرانى ٠٠ الا أنها فى الغالب ترجمــات لم تستهدف هــذا النوع من أدب الترجمة الذاتية فى حد ذاته ، وأغلبها اشــارات جاءت عرضــا فيما كتبوه ٠٠ وليس هناك من افرد كتبا مخصصة غير الحلاج فى كتابه « الطواسين » والغزالى فى كتابه « التعريف بابن خلدون » وعندما نصــل الى العصر الحــديث لا نجد غير ما كتبه على مبارك فى الخطط التوفيقية ومحمد على كرد فى كتابه « خطط الشام » ٠٠ وكتاب « الأيام » لطه حسين وكتاب « حياتى » لمحمد أمين و « عصفور من الشرق » للحكيم و « معى » لشوقى ضيف ٠٠ وما تناثر عن أنيس منصور فى كثرة من كتبه خصوصا « الا قليلا » و « صاون العقاد » و « عاشوا فى حياتى » ٠

واذا كانت المكتبة الغربية قد عرفت مئات الكتب عن كبــار الأدباء بأقلام الزوجات والأبناء والأصــدقاء والزملاء ، فان مكتبتنا فقيرة الى هــذا النوع من الأدب حتى جاءت هــذه السيدة سوزان وأعطتنا كتابها هذا الرائد « معك » ٠

لعل أول ما يلفت الانتباه فى الكتاب عنوانه « معك » ٠٠ نعرف أنه رحل قبل صدور الكتاب بخمس سنوات ٠٠ ولكنه يعنى

أنها تتحدث عنه كأنما هو حي ٠٠ فاذا كان قد رحل بجسده ٠٠ ولكن تبقى آثاره ٠٠ واذا كانت الخطوط الرئيسية عن طه حسين متاحة لنا من خلال ما كتبه هو وما كتب عنه فأجدني في الكتاب الرائد الرائع ٠٠ مهمتما بالوقوف عند اللمسات الانسانية الصغيرة٠

فهنا المحك الذى يكشف لنا جديدا ٠٠ من خلال نطاقه نعرف الماوراء ونطل على الأوسع ٠٠ هذه اللمسات الصغيرة ٠٠ تقدم لنا الدلالات الكبيرة عن دور هذه المرأة فى حياة هذا الرجل الفذ الذى جاء الى العالم ليختلف معه من أجل تحسينه ، وليخاصمه من أجل اصلاحه وكان تطبيقا لقوله فولتير : اذا مشى الكاتب فلابد أن يتقدمه الرجل ٠

« لسنا معتادين على أن يتألم الواحد منا بمعزل عن الآخر » هذه الكلمات كتبها طه حسين الى سوزان فى احدى فترات غيابها عنه ٠٠ وهى تلخص ٠٠ كما تعبر عن كنه العلاقة التى ربطت بين هذا الرجل وهذه المرأة ٠٠ وتقول هى فى تصدير كتابها « معك » أردت هذه الرحلة لأمشى معك ٠٠ ولأعيش معك ٠٠ أعيش معك مرة أخرى نعم فلم يتألم أحدهما بمعزل عن الآخر ٠٠ لقد جعلتنا سوزان بما عرفت كيف تلتقطه وتكثفه من جزئيات صغيرة قادرين على أن نستخلص كل حياتهما معا ٠٠ ونعيش نحن معهما أيضا هذه الحياة لحظة بلحظة ٠٠ تلك الحياة التى كانت أكبر من مجرد الحب بين رجل وامرأة ٠٠ ولقد عبر طه حسين عن نوعية هذه العلاقة فى احدى رسائله اليها : « ان ما بيننا يفوق الحب » ٠

نعم ان الأواصر التي وحدت بينهما لمدة ستة عقود من الزمان اكتظت بالأمجاد والأحقاد والهزائم والانتصارات ٠٠ هذه الأواصر تقف أقوى من الحب بالمعنى الضيق بين رجل وامرأة ، ولكن الحب كان هناك أصلا ٠٠ والغريب أن البداية بينهما كان يمكن أن تأخذ مسارا مختلفا ٠٠ بل كان من الممكن أن تصنع حاجزا يؤدى الى قطيعة ٠٠ فعندما كان طه حسين

يحضر لرسالته فى فرنسا وكانت هى تتولى أمر هذا النابغة المصرى الكفيف ‥ وكانت تحدوه بالحنان والرعاية ‥ وأنبرى يصارحها بحبه ‥ وجدت نفسها تصرخ فيه محتجة : « ولكننى لا أحبك » ‥ لعلها استفزت عندما فهمت أنه يعنى الحب بمعناه المباشر ــ رجل وامرأة ــ ولكنهــا كانت صرخة فظة ‥ متسرعة وجهمة ‥ ولعل المباغتة من جانبه كانت سببا ‥ ولكن هذا لا يعفيها من كونهــا ظالمــة ‥ ولكن هل كانت وليدة الحقيقة ٠ وانها موقفها النهــائى الذى لا يقبل المراجعة !

بعد ذلك عندما آبت الى رشدها ‥ عندما تلاشت انفعالات المباغتة وأصغت الى قلبها ‥ بعدها تمكنت من أن تعى أبعــاد العبارة من جانبه وتكتشف الكامن تحت فى اغوار نفسها ‥ والذى كان متواريا خلف أسجاف العشرة والألفة والتفاهم الفكرى ‥ والذى لم تتح له لقاءات العمــل والاستغراق فى مهــام القراءة والمحاضرات ‥ أن يجد صورته أو يسمع صــوته ‥ انه الحب عندما اكتشفته سوزان داخلها ‥ انبرت تواجه أهلها بالقرار ‥ سأتزوج من هذا الشاب ‥ وهبت عواصف الاعتراض ‥ كيف ‥ أعمى وأجنبى ‥ ومسلم فوق هــذا ‥ قالوها جميعا ‥ لابد أنك جننت تماما يا سوزان ‥ ولكنها كانت قد اختارات ‥ فصمدت نفس صموده الباهر عندما كان يتحدى ما يشبه المستحيل ‥ وأشهرت كل العائلة اعتراضها ما عدا عم لها كان رجل دين واسع الأفق فبعد أن التقى بطه حسين اقتنع به وعاد مبهورا بشخصيته يبــارك الزواج ويقول لها : هــذا الرجــل ســوف يتجــاوزك باستمرار ٠

ومن يومها وهى بجانبه حتى لحظة الموت ‥ عندما قال لها قبل النهاية بساعات « أية حماقة هل يمكن أن نجعل من الأعمى قائد سفينة » تقول سوزان : من المؤكد أنه كان يستعيد فى تلك

اللحظة العقبات التى كان يواجهها ·· والرفض الذى جوبه به ·· والهزء بل الشتائم من الدين كانوا بحاجة لمرور زمن طويل حتى يتمكنوا من الادراك ·· ولكن هذا الادراك الذى تعنيه سوزان لم يكن مفقودا تماما ·· فهى تؤكد بأنه وجد الادراك العميق لرسالته من لدن المصريين والشعب العربى فى شتى الأقطار ومن قبل العالم المتحضر ·· ووقف الرأى العام العربى وقـادة الفـكر فى أوربا بجانبه ·· فى المحن التى تعرضت لها حياته ·· من جراء مواقفـه الشجاعة وآرائه الجسور ، فعندما طرده صدقى باشا من الجامعة·· وقفت مصر بجواره بمثقفيها وبسطاء الناس فيها ·· ومنحه العالم العربى أكبر من عمادته لكليـة الآداب ·· منحوه لقب « عميد الأدب العربى » التسمية التى أصبح يعرف بها شخصه وان لم يذكر اسمه ·· فعندما نقول العميد ·· فليس هناك الا طه حسين ·· وخارج الحدود ·· تعاطف معه رجال الفكر فى أوربا ·· وكتب اليه المستشرق الايطـالى ليفى ديلافيد ليقول : احزنتنى هذه الأخبـار بصورة عميقة ·· ان تاريخ النضال من أجل الحرية العلمية لم يستكمل مسيرته بعد ·

وما أروع هذه اللمسة التى تسوقها سوزان تأكيدا لعظمة العميد ·· لقد كان خلال طرده من الجامعة يعانى ضائقة حادة ·· وكتب اليه المستشرق ماسينيون يعرض عليه أن يعمل أستاذا زائرا فى جامعات أمريكا ·· ولكن طه رفض باصرار وكتب الى سوزان يقول : لقد ايقظتنى رسـالة ماسينيون ·· اننى أستاذ معزول ·· وعالم ممنوع من العمل ·· ومن واجبى الا اشتغل فى السياسة ، وانما أؤلف الكتب وأسعى وراء الرزق ·· أما فى أمريكا فاننى سأكون أجنبيا ، وسأنظر الى حياة البلد دون أن أشارك فيها ·· ولن يكون على الا أن أقوم بواجب محدود ·

وتعلق سوزان : نعم أيها المناضل فأنت لم تكتف أبدا بمجرد واجب محدود ··

نعم ‥ الم يقل هو فى أحد المؤتمرات الثقافية فى ايطاليا ـ كما ذكرت سوزان « الكتابة هى أيضا العمل ‥ كل كاتب وكل فنان شأنه شأن بطل دانتى يحمل المصباح معلقا الى ظهره ليضىء طريق الذين يتبعونه ‥ هذه العبارة هى طه حسين نفسه ٠

ومن أبرز أدواره ‥ أنه رسخ فينا هذا ‥ وهذا ما دفع ولده مؤنس لأن يكتب اليه خلال احدى المحن التى تعرض لها : « هناك رجال خلقوا من أجل قيم مطلقة ، وآخرون من أجل اشياء عابرة ‥ وليس للأوائل الحق فى أن ينسوا رسـالتهم « أكان مؤنس يجرؤ ان يقولها لأب مثل طل حسين ، لو لم يكن الأب هو الرمز لما يقوله الابن ٠

وعندما جاء التليفزيون ٠ الى بيته عام ١٩٦١ وطفق العميد يتحدث فى قضايا الفكر والثقافة لمدة ساعتين ‥ وتوسلت اليه سوزان أن يتوقف رحمة بصحته الواهنة ‥ ولكنه ابتسم لها فى جذل يقول : دعينى فان عمرى ثلاثون عاما ‥ وعلق على امين على حيويته بقوله : انه لم يكن يتحدث فحسب وانما كان يتابع النضـــال ٠

واتوقف عند لمسة أخرى ساقتها سوزان لتعبر عن احترام كل منهما لدين الآخر ‥ فها هى ذى سوزان تناجيه بعد رحيله : افكر فى هذا التوافق الخفى الذى وحدنا دوما فى احترام كل منا لدين الآخر ‥ لقد دهش البعض من ذلك ‥ فى حين فهـم البعض الآخر ‥ اذ يرى أننى أردد صلاتى على حين يستمع هو الى القرآن فى الغرفة المجـاورة ‥ وكان هو كثيرا ما يحدثهـا عن القرآن الكريم ، وكثيرا ما كانت هى تصغى اليه متلوا من الاذاعة ‥ بل انها تؤكد فى تعبير بالغ الدلالة « بل انى لأسمعه على كل حال فى أعماق نفسى » !

تذكر لنا سوزان أنه عندما شاركت فرنسا ‥ بلدها فى الاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ‥ هنا أعاد طه حسين وسام جوقة الشرف الى فرنسا محتجا ، أما سـوزان فتقول : كنت

ممزقة .. أن يحب المرء بلده وأن يتوجب عليه أن يقول ان فرنسا لا تملك الحق فى تصرفها .. كان أمرا مؤلما وصعب القبول .. ثم تردف : ان من الحق أن نقول ان بلدا لا يتجسد كله فيمن يمثلونه .. بل ربما لا يتجسد فيهم الاطلاق .. لكن ذلك لا يحول بين الأخطاء .. المدمرة والشريرة .. ثم تحدثنا عن أريحية الشعب المصرى الذى ظل خلال العدوان وبعده يعاملها باحترام بالغ .. ولم تصدر من أى مواطن أية اشارة تسبب لها احراجا .. وهى تتحدث عن سماحة الاسلام وتقول : « عندما يتحدثون عن التعصب الاسلامى .. لا أملك نفسى من الغضب !!

لمسات كثيرة تسوقها سوزان .. عن العروض التى قدمها بعض المصريين والعرب وأيضا أحمد العمال الفرنسيين .. وتعرب عن رغبتها فى التبرع له بعيونهم .. ولكن العميد رفضها شاكرا مستشعرا نعمة الاحساس بأن الحياة جميلة رغم كل شىء .. ما دام فيها هؤلاء النبلاء .

اننا نعيش مع هذا الكتاب رحلة متعددة الجوانب تكشف لنا من خلال سوزان الكثير من حياتهما معا .. ولا أجد لدى ما أختتم به هذا الحديث اهم من تلك اللمسة الرائعة التى قدمتها سوزان وهى على مشارف الانتهاء من معاودة المشى معه من جديد .. تلك اللمسة التي قارنت فيها بين طه حسين وبين أبى العلاء المعرى .. « كثيرا ما تردد أن طه كان أبا علاء آخر .. انسانان غارقان فى الليل نفسه .. انسانان يرفضان قدرا ظالما ويملكان حرية فكر وكبرياء شامخة .. وكلاهما كان يحاكم العالم .. ولكن طه لم يكن متشائما مثل صاحبه .. ولم يحتقر الناس ولا الحياة .. واذا كان المعرى قد رفض سجن (العاهة) ورفض المظالم والآثام .. الا أنه لم يقل هيا الى الحياة .. الى النضال .. أما طه حسين فقد قالها واندفع يقاتل من أجل الحياة .

وبعد أن عاشت له .. وقالت ما لديها عنه .. انضمت اليه أخيرا فى رحاب رب كريم غفور .

د. حسين فوزى
من يغتال مصريتى أفترسه !

رحل الدكتور حسين فوى عن عالمنا لينضم الى موكب الخالدين بناة نهضتنا الحديثة الذين تساقطوا واحدا تلو الآخر بعد أن حرثوا أرض الثقافة وعبدوا طريق الغد ·· رحل واحد من أبرز الأدباء الذين علمونا وجاهدوا فى أن يدخلونا أعماق العصر فى مواجهة اتجاهات تريد لنا الوقوف عند مشارفهوأخرى تريد لنا الارتداد والانعزال فى مغارات الجمود ·· غاب عنا مفكر عظيم عاش سندبادا شجاعا يجوب بنا بحار المعرفة ومحيطات الثقافة وآفاق الحضارة ·· عرفناه متعدد العطاء قاصا وأديبا وعالما وطبيبا وبحارا وفنانا ·

وعرفناه كاتبا صحفيا حر الرأى جرىء الفكر ·· صادقا كما يراها ولو اقتضاه هذا الصدق وهذا الاخلاص أن يسبح ضد التيار ·· فقد كان عاشقا حقيقيا لمصر وعندما يعترض التيار كان يغامر لحساب مصر وحدها حتى ولو كانت التماسيح فى انتظاره ·

عشقه لمصر كان أنفاس وجوده ·· من اجلها صرخ وزأر ومن أجلها تعبد وتهدج ·· جالسته عشرات المرات فى مكتبه وفى يترو ·· وعند الحكيم وفى اتحاد الكتاب وفى منزله ·· وما من مرة الا كان كلامه صلاة لها ·· مصرنا كانت قضية عمره ومداد قلمه ونبض قلبه ·· ولقد واجهته ذات يوم فى حوار أجريته معه لمجلة المصور ونشر فى عدد ٥ نوفمبر عام ١٩٧٤ واجهته بقولى : أنت لك موقف معروف من فكرة العروبة فى مصر ·· هل اقنعتك الأيام بنقيضه ··

لقد أصبح من البديهيات ان مصير مصر يرتبط بمصير الأمة العربية كلها ·· هذا ما أكدته حرب أكتوبر واجابنى الرجل بقوله : أنا ظلمت كثيرا فى هذه المسألة ·· من قال أننى ضد العروبة وضد الأخوة العربية ، وان مصير مصر يرتبط بها ·· ولكننى كنت أحاول تأكيد اسم مصر والدفاع عن مصريتى فى مواجهة من جاء يمحو اسمها من الخريطة ومن الوجود ومن التاريخ ، يجب أن تفهم المسألة التى شاعت عني من هذه الزاوية لقد كان موقفى هو رد الفعل الطبيعى لمحو اسم مصر وفى مواجهة مغامرات الوحدة بلا تنظيم وبلا استعداد ، هل تريد منى أن أقف صامتا أمام محاولة اغتيال مصريتى ؟ من يفعل هذا أنا أفترسه · وداعا أيها السندباد الشجاع الذى تهاوى شراعه ولكن أبدا لن يسقط علمه ·

يحيـى حقـى

أنشودة البساطة التى لن يغيبها الرحيل !

رحل عن دنيانا مؤخرا اديبنا الكبير يحيى حقى ·· وبرحيله فقد أدبنا العربى فى هـذا العصر رائـدا من رموزه الشاهـدة والشامخة ·· ورغم ان هذا الفقد يمثل اختفاء دوحة وارفة سامقة ومثمرة من أشجار الابداع العربى ·· الا اننى لست من الذين يزعمون بأن مكانه سيبقى شاغرا ــ كما تقول العبارة المصكوكة عندما يغيب الموت علما من أفذاذنا ــ لأن قانون الحياة لا يعرف الأماكن الخالية · والا لتوقفت الحياة عند تخوم محددة ومنسوب بعينه ولمـا تقدم العلم وتطور الأدب وامتدت الحضـارة الانسانية فى مجـالات أوسع رحابة وأطول مساحة ·· ثم اننا أمة عربيـة لن تجدب ارضها فتاريخنا عطاء متواصل ·· واغدق متجدد ·· ولكن الذى يدفع بمقولة ان « مكانه سيظل شاغرا » كلمـا فقدنا واحدا من عماليقنا فى المجالات المختلفة ·· هو اننا لم نعد نعرف كيف نبحث عن الخلفاء والورثة منذ البداية لنمهد لهم الطريق الصحيح لحمل الراية والمضى بالقافلة ·· وفى ظل مناخ مثل هذا يقفز الى السطح انصاف الموهوبين ممن يملكون خصائص الانتهازية ومؤهلات الطفو وقدرات التسلق ·· ولأن الزيف قصير العمر ·· ولأن التمويه لابد أن ينفضح ·· فسرعان ما تكشف الحقيقة عن وجهها ·· وندرك ان الذين خدعونا ليسوا هم أصحاب الأحقيـة الشرعية فيما اغتصبوه من مواقع ليسوا أصحابها ·· وهنا يلوح لنا ان اللذين فقدناهم من عظماء سيظل مكانهم شاغرا ·· ونعانى فترة ركود حتى تتم خطوات تصحيح وينبرى أصحاب الأحقية نحو الصدارة ·· ثم تمضى القافلة !

رحل عن دنيانا يحيى حقى ·· هذا الأب الحقيقى من آبـاء الأدب العربى فى هذا العصر ·· واذا كان هذا الرائد فى حباه الله بعمر مديد ·· لم يغمط فيه حقـه ولا حاق عدم التقـدير بأحد منعطفاته ·· الا أن هذا لا يهون من خسارة الفقد وأحزان الغياب ·· فاذا كان مفهوم أنه أخذ حقه من الحياة ·· يمكن أن نتعـامل به مع الأفراد العاديين من الناس حولنا عندما ينتزعهم الموت من بيننا بعد ما أشبعتهم الحياة عمرا طويلا ·· أما العباقرة والأفذاذ من رجـالات أمتنـا فالموقف يختلف تماما ·· اذ أن وجـودهم بيننا ــ فى حد ذاته حتى ولو كان بعضهم قد كف عن العطـاء ــ يجعل هذه الأمـة تتيه فخرا وهى تطـاول الأمم الأخرى لتقول ها أنذا ·· عندى فلان وفلان ·· وكذلك ليكون مثولهم فى أفـق الوجود بيننا دافعا لطموح الأجيال نحو العطاء المتفوق ·· واستلهام حوافز الاضافة ·· ومما يجعل أثر فقدنا لهذا الرجل فادحا ·· اننا اذ نظرنا الى ساحة الأدب العربى حولنا نجد أن أغلب أشجار الريادة التى كانت تحوزها حديقة الأدب العربى فى هذا العصر قد أقتلعها الموت ·· وكان أحدهم هذا القنديل الوهاج الذى أذاب عمره زيتا يوقد المشاعل فى طريق أمتنا ·· وليس من عزاء فى هذا الفقد ·· غير اليقين بأن رجلا من طرازه لا يمكن أن ينتهى أثره فى الحياة وتأثيره فيها بمجرد أن يوارى جسـده باطن الأرض ·· لأن ما أعطاه على مدى عمره من ابداع متألق وفكر متضـوع ·· ونقد نفاذ الرؤية رصين الاجتهاد عميق الاكتشاف ·· كل هـذا سيظل ماثلا وراسخا فى أرض الثقافة العربية ·· ممتدا ومتمددا فى وجدانات أبنائه ومنداحا فى أمواج اضافاتها ·

فهذا الأب الذى تنسك فى محراب الأدب ·· وتعامل مع الحياة بحنو وتسامح حتى وهو يسخر من الأشياء المعوجة فيها ·· كان عاشقا للحياة ·· يغنى لها ويعزف « أنشودة البساطة » فى جنباتها ·· واذا كان قد جعل عبارة « أنشودة البساطة » عنوانا

لأحد كتبه المتميزة ‥ ليكشف لنا عن حقيقة الأدب العبقرى والابداع الموهوب الذى يعرف كيف يجعل البساطة أبرز سماته ‥ بينما خلف هذه البساطة البادية تكمن العبقرية التى تخفى المعاناة والمكابدة ‥ أليس هو القائل « قد أكتب الجملة الواحدة ثلاثين او اربعين مرة حتى أصل الى اللفظ المناسب الذى يتطلبه المعنى » ‥ الحق أن البساطة نفسها هى هذا الرجل ‥ فنانا كان له أهم الأدوار فى جعل فن القصة المستحدث فى أدبنا العربى يكاد ينافس الشعر صاحب الصولة منذ الجاهلية ‥ وانسانا متواضعا مترفعا يبغض الصخب ‥ ويمقت « تورم » الادعاء و « انتفاش » الغرور ‥ ورغم الهالة التى حفت بشخصه ‥ والمكانة التى كانت لاسمه ‥ عاش بيننا كادحا يقتات بمداد قلمه ‥ وعاش المرحلة الأخيرة من عمره مجرد « مستور » لا فائض عنده الا كبرياء الكرامة وعفة النفس ‥ وكان يمكنه أن يستثمر اسمه فى اجتلاب المغانم ولكنه اكتفى بمجرد جنيهات « المعاش الحكومى » بعد تركه الوظائف ومجرد القليل الذى يدره اعادة طبع كتبه ‥ ولولا أن جاءته جائزة الملك فيصل العالمية انقاذا فى وقت الشدة ‥ فلربما كان قد اضطر فعلا لبيع مكتبته ـ كما رددت الشائعات فى حينها قبل أن ينال الجائزة ـ ولو كان يحيى حقى قد اضطر لهذا لاستحقت هذه الأمة اللعنة ‥ ولكن الله سلم وجاءته الجائزة قبل الرحيل ‥ قبل أن يلفظ أنفاسه ساخطا على أمة جعلت مثله محتاجا فى آخر العمر ‥ ويشهد الله والذين اقتربوا منه ـ وأنا منهم ـ انه لم يجأر أبدا بشكاية ولا تفوه أبدا بما ينم عن احساسه بالمرارة !

وإذا كان عالمنا العربى بكل أقطاره وكل أجياله يعرف لهذا الرجل دوره الرائد كواحد من أهم بناة الأدب القصصى فى عصرنا الحديث ‥ فاذا كان قد استلم الراية من رواد قبله عبدوا أرض القصة وغرسوا بعض الأشجار فى حقلها فانه أحد الزمرة ـ بل

اهم واحد فيهم ـ الذين اجتهدوا فى أن يجعلوها فنا لا حكيا وهندسة معمارية لا أبنية عشوائية ٠٠ فهو أول من استخدم طريقة « الفلاشباك » فى القصة العربية بقصته « البوسطجى » وأول من استخدم الشكل الدائرى لتنتهى القصة من حيث بدأت كما فعل فى قصته « السلحفاة تطير » وهو أول أديب عربى أثار قضية « الفن للفن والفن للحياة » فى ساحة نقدنا الحديث ٠٠ واستطاع ان يخلص أدب القصة من شوائب كثيرة علقت بابداعات من سبقوه ومهدت لاضافات من لحقوه ٠٠ وربما تكون مكانته وريادته فى الأدب القصصى هذه المكانة التى جعلته يحتل بقصته « قنديل أم هاشم » فى أدبنا العربى نفس المكانة التى يحتلها جوجول الروسى بقصته « المعطف » واذا كان كبار الأدباء الروس يعترفون بانهم خرجوا جميعا من « معطف » جوجول ٠٠ فان أجيال القصة العربية تعترف وتشهد بأن طريق القصة العربية قد أضاءه زيت قنديله ٠٠ ولكن هذا الدور الرائد لا يجب أن ينسينا أو يغمط حق التقدير لدور آخر قام به متطوعا بغير أن يكون مطلوبا منه ٠٠ وهو دور الناقد المكتشف الذى يعتمد على تلقائية التذوق ورجابته بدون ان يلوى أعناق الابداعات لتعسفات المناهج ومقولات النظريات والمذاهب ٠٠ وهذا الدور تضافر فى انجاحه ذوق الفنان المطبوع المرهف مصحوبا بقدرات وتجليات المفكر المثقف ٠٠ فأنت عندما تقرؤه ناقدا ـ وهو بفرط تواضعه لا يزعم لك انه يكتب نقدا يصدر الأحكام وكأنها الآيات المنزلة التى لا نقض لها ولا مراجعة فيها كما يفعل بعض الذين ابتليت بهم حياتنا الأدبية فى العقود الأخيرة ـ تشعر انه يخاطبك كصاحب له فى عملية القراءة ٠٠ وتتبدى لك منه لمسات الفنان القادر على التعامل مع الأسرار الباطنة فى تلافيف الابداع ومنحنياته وطياته ٠٠ مقترنة هذه اللمسات المشعة بامكانيات ومؤهلات المفكر المثقف ٠٠ نعم ان صاحب « أنشودة البساطة » ورمزها وتطبيقها ٠٠ يحاول أن يقنعك بأن ما يقوله نقدا هو مجرد

انطباعات لا يتقيد فيها بمنهجية ما ·· أو هي « محاولات في النقد » كما يقول عنوان أحد كتبه ·· لكنك عندما تتعمق وتستوعب وتتفهم ·· ستعرف بأن هذا ما ينبغي أن يكون عليه النقد في الحقيقة ·· وليس تلك الطلاسم والمنطلقات التي يقرعنا بها نقاد آخر الزمان !! ان وراء نقدات يحيى حقي ثقافة خصبة متنوعة فكرية وفنية نابعة من رحابة انسانية احتوت الثقافات والابداعات والتراث بمعالم معطياته والعصر بسمات انجازاته ·· وفوق هذا احتوت الوجود والانسان بحب متيم لا تغيم عنك تجليات صوفيته ووجد عشقه ·

دور يحيى حقي في حياتنا الأدبية · هذا الدور المتعدد الجوانب ابداعا ونقدا ·· اضافة الى الحنو على المواهب الأدبية الجديدة وانصاف الاسماء المغمورة من كافة الأجيال كما يشهد بذلك كتابه « ناس في الظل » ·· دور هذا الرجل في كافة المجالات يحتاج الى مساحات واسعة تستوعب الرحلة وتقدر المدى وتبلور المناسيب ولا تضيق بالافاضة ·· ولكنها هنا مجرد كلمات عجلى تحف بموكب الرحيل ·· ويا صاحب « القنديل » اذا كنت قد قلت لنا : « لا قياس عندي لعمري الا بهذه اللحظات القليلة النادرة التي ينبض فيها عرق في روحي مهتزا بجذل قدسي عند التقائي بالفن متلقيا ومعبرا » فنحن نقول لروحك بأنه لا شيء يعطي لحياتنا طعمها ومعناها غير تلك الأناشيد الخالدة التي رتلتموها وستظل أنامل الدهر تعزفها لكل الأجيال ·· ويا صاحب « عطر الأحباب » أبدا لن يتلاشى من أفقنا أريجك ·· والله يرحمك !!

نجيب محفوظ وجائـزة نوبل

عملاق عربى فى مستوى عالميتها !

لحظتها ـ عندما بشرنا بفوزه ـ كنت أجلس مع الصـديق الناقد د. يسرى العزب وحولنا مجموعة من شعراء وأدباء الفيوم فى نادى الشبان المسلمين بالمدينـة الجميلة ، تأهبا لحضور ندوة أدبية بمناسبة ذكرى أروع ملحمة بطولية خاضتها مصر فى هذا العصر .. ولاعلان جوائز المسابقة الأدبيـة التى نظمتها مديريـة الثقافة بالفيوم احتفاء بالذكرى المـاجدة .

لحظتها وفى غمار حديثنـا عن الأدب والثقافـة ودور مصر الحضارى .. أطل وجه المذيع التليفزيونى ليعلن أن مصر حققت انتصارا جديدا .. وقبل أن يكمل النبأ ظهر وجه عملاق الروايـة العربية نجيب محفوظ .. فقفزنا جميعا .. قلناها بصوت واحد.. نوبل .. نوبل .. وأكمل المذيع النبأ .. واغرورقت كل العيون بالفرحة .. كان الأمر مفاجأة .. فلم يكن هناك فى الساحة الأدبية ثمة حديث على أن نجيبنا كان مرشحا .. ولكن عندما ظهرت صورته مقرونة بالحديث عن انتصار مصر .. تدافع التوقع تلقائيا .. نابعا من شرعية قيمته وقامته .. هو صاحبها .. بكل المقاييس هو صاحبها .. فلمن تكون ان لم تكن له ؟ .. منذ شهور ترامت أنباء بأن شاعرا عربيا حداثيا هو الذى سينالها هـذا العام .. وقد جاء هذا الشاعر العربى الى القاهرة حاضرة الثقافة العربية .. لينال جواز المرور الى الجائزة .. ورغم تحفظى على هذا الشاعر الكبير لموقفه من أشياء كثيرة تتعلق بالعربية وتراثها .. قلت فى

سريرتي ٠٠ ليكن ٠٠ وتمنيت أن ينالها ٠٠ فهو فى النهايـة ابن العروبة ٠٠ ويعبر عن موقفه من خـلال جماليات لغتها وقدراتهـا التشكيلية ٠٠ ليكن ٠٠ وتمنيتها له ٠٠ للعروبة قبل كل شيء ٠

ولكن شيئا من الأسى خالجنى ٠٠ عندما قفز التساؤل يقول٠٠ ونجيب محفوظ ؟ ! ان كانت ستقترب هذه الجائزة المستحيلة من تخوم العرب بعد أن ابتعدت عنهم طويلا ، وكان لديهم شـوقى ومطران والجواهرى وجبران ونعيمة والعقاد والعميد والحكيم ومحمد ديب ٠٠ ان كانت ستقترب انصافا وتحررا كما تردد من ضغوط سياسية تحف بها ٠٠ فنجيب الآن صاحبها ٠٠ هو بالشرعية والجدارة صاحبها ٠٠ خالجتنى يومها مرارة ليس مبعثها مصريتى فأنا ابن العروبة ، ولكن الحق هو الأحق بأن ينتصر ٠٠ لدينا مئات القمم الأدبية الشامخة فى عالمنا العربى ٠٠ ولكن ليست هناك قمة تعادل مستواه ٠

بعد أن أصبح التوقع يقينا اجتاحتنى فرحة اختلطت تدفقاتها بذكرى انتصار أكتوبر بعودة طابا ٠٠ طال علينا الأمد وأفراحك يا مصر قليلة ٠٠ ووجدتنى أهتف ٠٠ مصر ٠٠ مصر ٠٠ مصر ٠٠ ومن فرط الانفعال كانت تنطلق منى وكأنما كنت صاحب لوثة ٠٠ ولكنها مصر بكل أبعادها وكيانها تلك التى كانت أمامى لحظتها ٠٠ ولمن الجائزة اليوم ؟ ٠٠ وأى جائزة ؟ أفذاذ أدباء العالم يتنافسون حولها ٠ لمن الجائزة ؟ ٠٠ لنجيبها ٠٠ ابنها ٠٠ نتاج حضارتها ٠٠ ذوب عبقريتها ٠٠ دوحة سامقة وارفة متفردة فى أرض ثقافتها ٠٠ بلى هما يتشابهان ، مسيرة مصر شاسعة فى درب الحضارة ٠٠ وابنها هـذا الفائز بنوبل ٠٠ مسيرته ممتدة ومتوغلة فى روحهـا ووجدانها ٠٠ كانت عشقه الأول وهمه الأوحد ٠٠ وقد أخلص لفنه الذى طوعه للتعبير عنها بقدر اخلاصه لها ٠٠ بل كان هذا الاخلاص للفن وليدا شرعيا لاخلاصه للوطن ٠٠ تبلور ذلك فى رؤية احتوت مصر تاريخا وواقعا ٠٠ وأحداثا واحتضانا للحلم ورفضـا للقهر

واستشراقا للغد ٠٠ وفى طرائق قص مجودة مجددة لا تقف عند حدود ولا تتجمد عند منسوب ٠٠ عرفناه منذ جاء فى الثلاثينات من هذا القرن حتى الآن الفنان المبدع المجود الذى يجتهد دائما فى أن يتجاوز كل شأو بلغه ، وكل مستوى حققه ٠٠ وعرفناه المجدد الذى يعبد أرضا غير مطروقة ، ويبتدع فى الفن طرائق نابعة من مضمون أعماله ومتناسقة مع الرؤية التى تستهدفها ٠٠ فهو فنان الأصالة والمعاصرة ٠ ابن عراقة التراث والمستجيب لنبض الحداثة ٠٠ وانجازاته هى العلامة الشاهدة والموثقة التى تقاس بها الآن قامة الرواية العربية ٠٠ رغم قيمة وعظمة بعض الأسماء فى مجالها مصريا وعربيا ٠

وهناك تقولات عن أعمال رائعة وموهوبة حقا زعم البعض هنا وهناك أنها تجاوزته ٠٠ ولكن هذه التقولات ما أحسبها تملك من الأسانيد ما يجعلها شرعية٠٠انها تتدثر ببهرجة الاعلام والفرقعات الصوتية أكثر من تلفعها بدثار الموضوعية ووقوفها على أرضية الحقيقة ٠٠ ولهذا فهى لا تمكث فى الأرض مهما طغت ٠٠ ووراءها دائما ما نحن نعرفه ، وما نعى خلفياته ومراميه !! ويظل هو فى حقل الرواية العربية عملاقها وعمدتها ٠٠ وكبير اربابها وأستاذ مدرجاتها ٠٠ وتتداعى الى الذاكرة مقولة أخرى ٠٠ لم يكن منطلقها مغرضا ٠٠ بل كان تعاطفا مع الوجوه القادمة ٠٠ مقولة اعتقدت بأن انجازاته الشاهقة بفرط اصالتها وتجددها ٠٠ ورحابتها أصبحت تشكل عقبة أو سدا أمام القادمين وفى طريق جيل جاء بعده ٠٠ كيف ؟ ! ان الكاتب الفذ يمهد الطريق للعباقرة ٠٠ وقد مهد هو الطريق لأسماء متألقة فى سماء الرواية العربية ٠٠ كل ما فى الأمر أن انجازاته ألهبت قدراتها ٠٠ وحفزت كوامن مواهبها وطاقات عطائها ٠٠ لا تستطيع قوة فى الدنيا أن تعوق موهبة خارقة ٠٠ وفى الساحة متسع لكل ابداع حقيقى ٠٠ والدليل نجيب محفوظ ذاته٠٠ جاء نجيب والدرب غاص بالعمالقة والكبار ٠٠ العقاد وطه حسين

والحكيم والزيات وسلامة موسى .. فهل عاقوه ؟ .. شق طريقه وسط العماليق بمجرد الموهبة ورفع علمه وسط القافلة .. وقالها .. اسمى نجيب محفوظ .. وبتؤدة ، ومثابرة تسنم الذروة وخفقت رايته .. بل ان بعض أبناء جيله من كتاب الرواية كانوا أكثر منه شهرة وأعرض قاعدة .. وأكبر نفوذا .. ولكنه بالمثابرة الدأب والاصرار أبرز موهبته وتخطى كل الصعاب .. وفى النهاية تجاوزهم ولفحهم خلفه .. لست فى حاجة لأن اسوق الشواهد ، فكلنا يعرفها .. وكان فى منافساته نبيلا لا يعرف غير المشروع أسلوبا .. لم يحاول أن يتهجم أو يدين أحدا .. ولقد حاول البعض أن يجعل من انجازاته ومن تفرده مطرقة يدك بها الآخرين .. ورغم كونه ليس مسئولا عن حسابات الآخرين فانه فيما يتعلق بمسئوليته وموقفه كان دائما شريف الرأى عف اللفظ يشيد بكل من أعطى ويعترف لكل من حاول .. وأبى أن يكون فى ساحة الأدب فرعونا لا يرى فى الغير أندادا .. وانما مجرد رعايا .. وبفرط تربيته الحضارية اعتبر نفسه تلميذا لمن سبقوه .. وزميلا لمن رافقوه !! .

سر عظمة هذا الفنان الخلاق الذى توجته الدنيا بجائزة نوبل .. يكمن فى مصريته ، سلوكا وخلقا .. ابداعا وفنا .. ولا أعرف كاتبا تحقق فيه التوافق المتناغم الرائع بين الانسان والفنان .. بين الخلق والفن كما تحقق فى هذا المصرى نجيب محفوظ .. ابداع متوهج وانسان مستقيم ملتزم الفكر والسلوك متوازن النهج والرأى .. فيه تواضع المصرى الذى يحقق الخوارق ولا تدفعه الى الصدارة الا أذرع المنصفين .. ابن هذه التربة ، هو أخلص لمصر فأعطته وجدانها ونفذ الى سرها .. انسانا وموقعا وزمانا .. وعلينا أن ندرك أن عالميته التى أوصلته الى نوبل بغير سعى منه ولا محاولة ولا حتى معرفة سابقة بأنه كان مرشحا .. علينا أن ندرك أنها مصريته .. فالذين يعبرون عن خصوصية شعوبهم . من المحتم ان تتلاقى رؤاهم مع الانسانية كلها .. ان

الصدق ‧‧ صدق الرؤية وصدق الامكانية ‧‧ هذا الصدق يفرز الانسان ‧‧ مهما اختلفت بلدانه ولغاته ‧‧ والكاتب الحقيقى هو الذى يعرف كيف يحتوى خصوصية شعبه فى نطاق عمومية الانسان ‧‧ وهذا ما فعله نجيب بلا تعمد وأوصله الى العالمية ‧‧ واحدا من بناة الرواية العظام فى هذا العصر ‧

مصريته الحميمة أطلت الحديث عنها ‧‧ لأنى أجده التعبير عن هذه المصرية ‧‧ لم تكن مصادفة ان يبدأ مسيرته الشاسعة ذات الأبعاد المتناهية فى أرض الرواية برواياته : عبث الأقدار ورادوبيس وكفاح طيبة ‧‧ انها اذن بداية واعية لفنان يغوص فى أغوار مصر قبل أن يبدأ جوسه فى مكونات واقعها ، ولم تكن قفزة عشوائية أن يقدم لنا « القاهرة الجديدة » ليبدأ رحلته داخل مصر العصر ، وليواجه الواقع الفاسد المتردى ‧‧ استشرافا لما سيكون بعد ذلك ‧‧ أو بعد سنوات عندما تنطلق العاصفة ‧‧ ويتصدى ثوار يوليو للتغيير ‧‧ لم يكن محرضا وانما كان موحيا بطريقة الفنان لا مقولة الداعية ‧‧ ثم تداعت خان الخليلى وزقاق المدق والسراب وبداية ونهاية ‧‧ ومرة أخرى أقولها انا لا أعرف كاتبا عبر عن الحارة المصرية ونماذجها والمشاعر التي كانت تمور داخل مصر ‧‧ كما فعل ‧‧ أكاد أقول بأننا من خلاله قد اكتشفنا الحارة المصرية والقاهرة ‧‧ ولقد أعطانا لما كنا نراه أمامنا عاديا وتلقائيا دلالة ومعنى ‧‧ وأبعادا واكتشافا ‧‧ وبعدها وقبل أن يبدأ رؤيته فى التعامل الفنى مع متغيرات ومستحدثات ثورة يوليو ‧‧ قد صمت سبع سنوات منذ عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٥٦ بعدما صدرت بداية ونهاية الى أن جاءت الثلاثية الخالدة بين القصرين وقصر الشوق والسكرية ‧‧ وما أحسبه كان الصمت المنعزل أو حتى المراقب ‧‧ فقد كان خلالها يحاول أن ينسج رؤيته تأصيلا للمسيرة الجديدة من خلال مصر ‧‧ أراد أن يقدم للثورة « بالثلاثية » مصر ما قبل الثورة ‧‧ لتعرف الثورة طريقها الحقيقي ‧‧ وكانت هذه الثلاثية

مصر بناسها بتقاليدها بكل طبقاتها وتياراتها وجاءت الثلاثية انجازا خارقا فى مجال الابداع ·· توج قيمة الرواية العربية ·
ومضى يستوعب الواقع الجديد ويبلوره مجتهدا فى أن يبتدع له المعمار الفنى الذى يعادل أبعاد رؤيته له ، وتوالت أعماله : اللص والكلاب والسمان والخريف ، ويستوعب الاهتزازات والاختلالات فى « الطريق » و « الشحات » ثم يواجه الانحرافات فى « ثرثرة فوق النيل » و « ميرامار » منبها بوعى الفنان الى الخطر ·· ويحدث الخطر وتتوالى مجموعاته ورواياته : خمارة القط الأسود وتحت المظلة وحكاية بلا بداية ولا نهاية وشهر العسل والمرايا والحب تحت المطر والجريمة والكرنك وحكايات حارتنا وقلب الليل وحضرة المحترم ·· بكل هذا يكشف لنا خلفية ما يحدث حولنا ·· ويأتى الانفتاح بعد حرب أكتوبر ·· وتتلاحق على مصر رياح المتغيرات السريعة والمنقضة ، ويفرز الواقع الجديد أنماطه وسلوكياته وقيمه ·· ولم يكن هو غائبا ·· انبرت أعماله تكشف وتقنن وتضىء ·· وجاءت الحب فوق هضبة الهرم والشيطان يعظ وعصر الحب وأفراح القبة وليالى ألف ليلة ورأيت فيما يرى النائم والباقى من الزمن ساعة وأمام العرش ورحلة ابن بطوطة والتنظيم السرى والعائش فى الحقيقة ويوم قتل الزعيم وحديث الصباح والمساء وأخيرا صباح الورد ·· آخر أعماله المطبوعة ·· وكلها ـ سواء الروايات أو القصص القصار ·· سواء ما جاء منها متعاملا مع الواقع من خلال وضوح الرؤية او رمزيتها ـ تكشف عن مصر بكل محتواها بكل ما جرى لها وجرى عليها ·· ولكن بشروط فنان يحذق لعبته ويستعمل أدواته ·· ولا شىء أبلغ من الفن عندما يكون مقتدرا ·

الحديث ذو شجون اذا كان نجيب محفوظ له الفضل الأكبر فى كونه جعل الرواية هى الفن الأدبى الأول ·· حيث كانت أعماله الابداعية حافزا لكل الأجيال والطموحات ·· واذا كانت النظرة

اليه تنطلق من هــذه الزاوية غالبا ٠٠ فعلينا أن نتنبه الى دوره البارز فى مجـال تأصيل فن القصة القصيرة فى أدبنا ٠٠ وفى اعتقادى أن القيم الفنيـة والابداعيـة التى تؤكدها مجموعتـه القصصيـة (١٣ مجموعة) منذ همس الجنون حتى صـباح الورد ٠٠ لا تقل أهمية عن عطائه فى مجـــال الرواية ، فقد جود وجدد وطور ٠٠ بما يجعله واحدا من أهم بناتها ٠

هـل يمـكن أن تستقيم أى محاولة لتقييم نجيب محفـوظ ولو بالانطبـاع ، وهى تغفـل الاشـارة الى « أولاد حارتنـا » و « الحرافيش » ؟ اذ بين أول كتاب أصدره بعنوان « مصر القديمة » وآخر كتاب صدر له « صباح الورد » يبرز عملان من قمـة الأعمال الانسانية المتميزة على مدى الأعصر والدهور ٠٠ هما أولاد حارتنا والحرافيش ٠٠ ملحمتان هما بتكثيف الفنان مسيرة التاريخ ومسيرة مصر ٠٠ وفى المستقبل عندما تمتد لغتنـا العربيـة ٠٠ وينتشر أدبنا ٠٠ فانه عندما تذكر الالياذة وتذكر الأوديسة بأى لغـة ٠٠ فسوف تذكر أولاد حارتنا والحرافيش ٠

وتبقى كلمة ٠٠ وليعها الجميع من كل الأجيال ٠٠ لا قيمـة الا للعطاء ٠٠ كل محاولات اهتبال الضوء وتسخير النفوذ والعلاقات والقنوات بغير حق لا طائل منها ولا جدوى ٠٠ ونجيب محفوظ هو الشاهد ٠٠ وهناك شاهد آخر من وراء الحدود هو الكاتب الأمريكى وليم فوكنر ٠٠ كلاهما ظل يكتب فى كدح وصبر بدون سـعى الى جائزة أو هالة ٠٠ لم يغادر فوكنر قريتـه ، ولم يغـادر نجيب قاهرته ٠٠ ولكن العالم هو الذى جاء يطرق باب كل منهما ٠٠ ما معنى هذا ؟ ٠٠ معنـاه أن ما ينفع الناس سـوف يمـكث فى الأرض ٠

ابراهيم طلعت

وجه الأديب الشاعر .. وراء مواقف السياسي المجاهد !

ثمة ظاهرة لا يمكن أن تكون عفوية أو وليدة المصادفة ، ولا يمكن اغفالها عند النظرة الى تاريخنا الحديث فى كليات أحداثه أو فى تفاصيل جزئياته ، وهى أن كثرة من قادة الحركة الوطنية فى مصر ومن أعلامها كانوا أصلا من رجال الأدب والفكر . وهى ظاهرة تنطوى على دلالة موحية ورامزة تؤكد أن العمل السياسى عند هؤلاء ـ وربما وفقا لما ينبغى أن يكون ـ كان رؤية ثقافة وعواطف فكر .. وأن رجل الأدب غالبا ما تدفعه نوازعه التى تؤصلها مكوناته الثقافية الى العمل السياسى التصاقا بالوطن فى مجموعة .

اقول هذا مدخلا للحديث عن مجاهد وطنى قد تعرف كثرتنا له جهاده العتيد العنيد فى الساحة الوطنية منذ يفاعته .. ولكن القلة هى التى تعرفه شاعرا له دواوينه المطبوعة وقصائده التى كانت تنشر فى الصحف المناضلة . وتلقى فى المحافل الوطنية . انه المجاهد الوطنى ابراهيم طلعت .. لقد كانت مفاجأة لى أن أعرف هذا .. ولكن المفاجأة ذاتها قد فسرت لى ما كنت أراه يكاد يكون أسطوريا فى كفاحه الوطنى وجهاده السياسى . ان بذور ذلك اذن كانت تكمن فى انضواء ذاته على عواطف الشاعر ورؤية المثقف .. واستشرافات الأديب .

نعم كانت مفاجأة أن يقدم لى صديق أديب يعرف علاقتى الوطيدة بهذا المجاهد الذى بذل الكثير ولم يقبض الثمن الا سجنا

واعتقالا ورئة مبتورة . ومازال برغم الشيخوخة يمارس العمل الوطنى بحيوية الشباب واحلام اليفاعة . بعض انتاج ابراهيم طلعت المطبوع ـ وقد عثر عليه فى مكتبة والده ـ ماثلا فى ديوان « العندليب » الذى صدر عام ١٩٣٤ عندما كان ابراهيم طلعت لم يزل بعد طالبا بمدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية . واذا عرفنا أن ابراهيم طلعت من مواليد عام ١٩١٧ فمعنى ذلك أنه كان وقتها فى السابعة عشرة من عمره .. وكذلك مجموعة قصصية بعنوان « دموع ودماء » صدرت عام ١٩٣٥ . ثم ديوان آخر بعنوان « ألحان العندليب » صدر عام ١٩٣٩ .

وقد تضمنت صفحات ديوان « العندليب » اعلانا عن ديوان باسم « الرائد » كما قرأت فى مجموعته القصصية « دموع ودماء » كذلك اعلانا عن « ديوان طلعت » وكذلك اعلانا عن رواية اشترك فى ترجمتها عن شكسبير . يقول الاعلان « رواية مكبث لشكسبير ينقلها اليكم شعرا عن الأصل الانجليزى مباشرة ابراهيم مصطفى طلعت ومحمود السيد السنان » كما أن ديوان « ألحان العندليب » قد أعلن أيضا عن كتاب لابراهيم طلعت اسمه « ليالى البرش ـ مذكرات سجين سياسى » ولكن هذه الكتب المعلن عنها لم أتمكن من العثور عليها .

وقبل أن أعرض لهذه المطبوعات التى وقعت فى يدى ، وهى العندليب ودموع ودماء وألحان العندليب .. ارى أن من الأفضل ـ توافقا مع الغرض من هذا المقال ـ أن أعرض هنا للوجه الذى عرفناه عن ابراهيم طلعت بغية أن تكتمل النظرة اليه من خلال الوجه الآخر الذى قد لا يعرفه الا البعض من رفاق جيله فى مجال السياسة ومجال الصحافة .

الوجه الذى تعرفه

عرفت مصرنا ابراهيم طلعت مجاهدا من شرفاء الوطنية المصرية الذين كان العمل السياسي بالنسبة لهم قضية شرف الوطن وكرامته

وكبرياء تاريخه ٠٠ وتحريره من الاحتلال والطغيان ٠٠ كما عرفت له مواقفه الباسلة على مسرح الصحافة والمحاماة والنيابة البرلمانية ٠٠ كما تعرف له دوره فى الغاء معاهدة ١٩٣٦ عندما كان نائبا فى برلمان آخر حكومة وفدية قبل ثورة يوليو ٠٠ وكذلك دوره فى قيادة جانب من الكفاح المسلح فى القناة بعد الغاء المعاهدة٠٠ وتعرف له دوره فى الاعداد لثورة يوليو ودوره خلال الثورة الذى انتهى بالخلاف بينه وبين صديقه جمال عبد الناصر ٠٠ رغم ما كان يربط بينهما من وشائج الود الوطنية والثورية ٠٠ ولعله أول سياسى مصرى اعتذر له عبد الناصر رسميا ، ونشر هذا الاعتذار فى الصحف مشيدا بوطنية ابراهيم طلعت بعد الافراج عنه عقب اعتقاله الذى تم قبل قرار حل الأحزاب بيوم واحد ٠

لقد اعتقل ابراهيم طلعت فى كل العهود التى عرفتها مصر منذ عام ١٩٣٣ ٠٠ فقد بلغت مرات اعتقاله ٢٤ مرة كما حوكم فى قضايا سياسية أمام محكمة الجنايات ٩ مرات ٠ وأصيب ٣ مرات برصاص الانجليز فى أحداث عام ١٩٣٥ وعام ١٩٣٧ وعام ١٩٤٦ ٠٠ وكان هو قائد مظاهرات الاسكندرية يوم ٤ مارس ١٩٤٧ فى أول كفاح مسلح ضد الانجليز ، حيث أحرق الشعب السكندرى الثكنات ٠ وقتلت الجماهير الثائرة عددا من ضباط الانجليز وجنودهم ٠٠ وعندما انتخب نائبا عن دائرة كرموز فى آخر برلمان قبل ثورة يوليو أذاعت جميع وكالات الأنباء العالمية نبأ فوزه باعتباره أول شاب مصرى مكافح يدخل البرلمان ، ثم انه نجح فى الدائرة أمام رجل له نفوذه الواسع ٠ وكانت الدائرة حكرا عليه دوما فى كل الانتخابات ٠٠ بجانب أن المعركة ذاتها تكتلت فيها ضده قوى الاستعمار وأعوانه ، اذ كان من الخطورة ان يصل هذا الثورى المناضل الى قبة البرلمان ٠

واذا كنا قد عرفنا له دوره خلال هذه الفترة متضامنا مع عناصر « الطليعة الوفدية » فى اسقاط قوانين الصحافة والاشتباه

السياسى وأنباء القصر التى كانت معروضة على البرلمـان ·· واذا كنا كذلك قد عرفنا له دوره فى الغاء معاهدة ١٩٣٦ ودوره فى قيادة الكفاح المسلح فى منطقة القنـاة بعد الغاء المعاهدة مما أفقده احدى رئتيه فى الاسماعيلية واحدث عطبا فى الثانيـة ، واذا قرأنا مضابط مجلس النواب أيامها وصحف تلك الأيام نعرف أنه النائب الذى تقدم لمجلس النواب بمشروع قانون يقضى باعدام كل مصرى يقبل الدفاع المشترك ·· وكانت مصر ايامها حبلى بشىء ما قادم ·· فقد كان الصراع على اشده بين القوى الوطنية والقوى المناوئة لأمانى الأمة ·· وكان هناك تلويح بالدفاع المشترك ·· والغريب وقتها أن الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجيـة الذى كان يتأهب لمفاوضة الانجليز لم يجد فى هذا المشروع احراجا له ·· بل وقف وسار نحو ابراهيم طلعت يشد على يده ، فحكومة الوفد كانت قد اعلنت أنها ضـد أى محـاولة لجر مصر الى الأحلاف ·· ثم أعرب صلاح الدين عن رأيه فى أن هذا المشروع من شأنه أن يقوى مركز المفاوض المصرى فى مواجهة الطرف الآخر ·· لأنه يؤكد تصميم القاعدة المصرية على رفض التبعية وأن الاشتراك فى الأحلاف لن يكون هو الثمن الذى تدفعه مصر مقابل الجلاء ·

كرمـوز تسـحب ولاءهـا

اذا كنا ، أو البعض منا ، نعرف كل هذا عن ابراهيم طلعت·· فان هناك واقعة لم تقف أمامها الكتابات السياسـية طويلا ·· انها واقعة تماثل واقعة « جمهورية زفتى » التى أعلنها يوسف الجندى فى بلدة « زفتى » خلال تشوب ثورة ١٩١٩ ، ولهذا قصة ·· كان ابراهيم طلعت أيامها نائبا عن دائرة كرموز فى آخر برلمـان وفدى قبل ثورة يوليو ، واعلن من فوق مقعده فى مجلس النواب رفضـه أن يتبرع بمكافأته البرلمـانية لتقديم هدية الى الملك فاروق بمناسبة زفافه الى الآنسة ناريمان صادق ، وكان أعضاء المجلس قد وافقوا

على ذلك ما عداه هو وابراهيم شكرى ، وأرسل كل منهما برقية الى رئيس المجلس المرحوم عبد السلام فهمي جمعة ــ والد زميلهما ورفيق جهادهما المرحوم عزيز فهمي ــ تهدد برفع الأمر الى القضاء لو احتجزت المكافأة لهذا الغرض ٠٠ وهنا لم يجد فاروق طريقا للانتقام أمام حصانتهما البرلمانية ٠ غير أن يتجاهل دعوتهما الى حفل الزفاف الذى دعا اليه أعضاء المجلس بصفتهم نواب الأمة٠٠ ووجدها ابراهيم طلعت فرصة لتصعيد الموقف ضد فاروق ٠٠ فدعا الى اجتماع لأبناء دائرة كرموز ٠٠ وهناك أعلن لأبناء الدائرة أن ما فعله الملك يعتبر اهانة لشعب كرموز باعتبار أن ابراهيم طلعت هو نائب الدائرة ٠٠ والملك قد دعا النواب بصفتهم الاعتبارية لا بصفتهم الشخصية ٠٠ ولهذا فهو قد أخرج دائرة كرموز من نطاق مملكته ٠٠ وبناء عليه فان كرموز تسحب ولاءها من الملك ٠٠ وقد خطب فى هذا الاجتماع ــ تأييدا لموقف النائب ــ المجاهد الفلسطينى محمد على الطاهر ــ صاحب صحيفة الشورى، والمجاهد العراقى حسين جميل الذى كان وقتها وزيرا للعدلية العراقية فى وزارة مزاحم الباجهجى ٠ واللواء المواوى قائد حملة الجيش المصرى فى فلسطين وغيرهم ٠٠ والطريف أن هذا الاجتماع تسبب فى استقالة وزارة مزاحم الباجهجى بعد أن وصلت التقارير بما حدث الى الأمير عبد الاله الوصى على عرش العراق ٠

الوجه الآخر ٠٠ وجه الشاعر

فيما سبق عرضت عليك أمشاجا من الصورة التى تعرفها مصر عن ابراهيم طلعت ٠٠ أما وجه الأديب الشاعر فقد لا تعرفه الا قلة من أبناء جيله ، فقد استغرقته بعد ذلك مواقف النضال السياسى وامتصت كل جهده وعمره ، فانصرف عن الشعر والأدب٠٠ حتى انه رغم صداقتى له لم يحدثنى عن هذا الجانب ٠٠ وكثيرا

ما تناقشنا حول قضايا أدبية ، كنت أعتقد أن رؤيته لها تنطلق من زاوية الثقافة لا الممارســة ٠

لقد صدر ديوانه الأول « العندليب » فى سبتمبر عام ١٩٣٤ وكان وقتها فى السابعة عشرة من عمره ، فاذا وضعنا فى الاعتبـار أن ديوانا من الشعر لا يمكن أن يكتمل محتواه من القصـائد الا على مدى عدة سنوات ٠٠ فمعنى ذلك أن شاعرنا قد عرف عالم الأدب والشعر والثقافة وقضايا المجتمع والوطن وهموم السياسـة فى مرحلة مبكرة من عمره ٠٠ واذا كنا نجد بعض قصائد التقريظ التى تقدمت الديوان بأقلام :

الشاعر العراقى الكبير معروف الرصافى ، والأديب والزعيم السنغافورى عبد الله السقاف العلوى ، والشاعر أحمد فتحى ٠٠ فمعنى ذلك أن شاعرنا برغم صغر سنه كان على صلة وطيدة بالحركة الأدبية فى مصر والعالم العربى والاسلامى ٠

يضم ديوان العندليب مجموعة من القصائد فى أغراض متنوعة مثل العواطف الذاتيـة والخواطر الوجدانيـة والرثاء والقضايا الاجتماعيـة والوطنيـة ٠ ولكن أغـلب قصـائد الديوان تدور حول مصر وشجونها وأحوالها وما يحتدم فوق أرضها من أحداث سياسية ٠٠ وعندما أعرض لبعض القصائد الوطنية فانى أستهدف بذلك تأكيد أن مواقفه فى المجـال الوطنى لم تنبت من فراغ ، بل تمتد جذورها الى احساس وطنى مبكر ورؤية ثقافية ناضجة ٠

ولم تكن مصادفة أن أول قصيدة فى الديوان كان عنوانهـا « العلم المصرى » ويراه ابراهيم طلعت :

مجد الكنانـة لاح فيه ورمزها
وشعارها بالحفـل أو بالنادى

ولكن ما جدوى أن يخفق العلم وأوضاع مصر أيامها تعذب قلبه الصغير ، فينفث آهاته فى قصيدته « تخاذل » مندداً بالذين يقبضون على أقدارها :

تفككنـــا وأصبحنـــا ذئابـا
مقاصـدنا الخيانـة لا الأمانـة
فضجت مصر بالشـكوى ولكن
« فؤاد » القوم أعمته الخيانـة

ولكنه بعد ذلك فى قصيدته « نفوس » يستفز النفوس قائلا :

الحر من ثدى الفضيلة يرضع
والعبد فى بحر الرذيلة يسبح
لم يرتض الحر الهوان لوكره
والعبد فى مهد المذلة يضجع

ولأنه قد ارتضى الحرية نهجا لنفسه وخلاصا لوطنه فى قصيدة « بلادى » يعاهدنا :

شرفى أقدمـه وعرضى طائعـا
لأصـون عرضك ماثلا بجـلال
ان العدو اذا تمكن فى الثرى
والدهر باعـك سلعة لرجـال
فالعرض يكفل أن يردك ثانيا
والعرض يفدى مجدك المتعالى
فثراك مهدى لو أعيش على الثرى
وثراك رمسى لو حططت رحـالى
وكذا غذائى من ثمارك فاطلبى
انى غذاؤك ان أردت أكـالى

ولا يكتفى بنفسه نذرا لمصر وذبا عن حياضها ، ففى قصيدة « الخلود » يطالب شباب مصر باليقظة واستعادة مجدها :

قل لابن مصر اليوم يومك قد كفى
نوما وقـد دام المنـام سنينا

لأنه كما يقول بعد ذلك :

عار على ابن النيل أن يجد الردى
فى أرض مصر ولا يـكون حزينـا

وأى عار والحال كما يراه :

نحن الضحية فى مناكب أرضـنا
نجنى الوزين ويحصدون التينا

ولكن أين الخلاص ؟ .. يراه ابراهيم طلعت :

ها نحن ظماى يا شباب ولم نزل
نرجـو شـهى دمائـكم ترويـنـا
فابغ المنيـة بالنصـال لوامعا
واربا بنفسـك أن تموت رعينا

ومهما يكن الخطر ، ومهمـا كانت السجون تغفر افواههـا فالأحرار لا يبالون ، ان الأمر كما يقول لنا فى قصيدة « غاندى يذهب الى السجن » :

نعم للسجن أذهب لا أبـالى
ولا أخشى السجون بأى حال
فـان السـجن للأحـرار دار
ودار الحـر ميـدان النضـال
اذا كانت حيـاة المـرء ذلا
فنعم السـجن بيتـا للرجـال

ورغم كل شىء فابراهيم طلعت يقول لنا على لسان غاندى ، وكأنما كان يتنبأ بحـاله هو بعد ذلك ، وقد تجرع مرارة السجون والمعتقلات ، وعرف الاضطهاد فى مراحل كثيرة من عمره ، ولكن ذلك لم يزده الا صلابة وعنادا بدون أن يهن أو يتراجع .. هكذا كان دأبه دوما ، يقول لنا على لسان غاندى :

اذا ما عـدت للدنيـا طليقـا
أزمجـر كالهزبر على الرمـال

واصبح كالحسام يريد طعنا
أهـدد كـل شيء بالـزوال
فاما أن أهـدم كل ظـلم
واما أن أعـود الى العقـال

اذن فلا غرابة فى أن تأتينا مواقفـه بعد ذلك طيلة أكثر من نصف قرن من الزمان ، بعد صدور هذا الديوان ، تطبيقا لما قاله صغيرا ، ونذر له عمره غضا .

والحـان العنـدليب .. ايضـا

أما ديوانه الثانى الذى وقع فى يدى فهو « الحان العندليب » وقد صدر عام ١٩٣٩ عن « دار الثقافة العامة » التى كان يشرف عليها الكاتب الصحفى المعروف الأستاذ محمد صبيح ، وقد صمم غلافه الفنان عبد السلام الشريف .. وكما قدمت لنا الديوان الأول بعض الأسماء الشاعرة المعروفة فالديوان الثانى تتصـدره كلمة للأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتـاة أيامها ، تقول هذه الكلمـة :

« لطالمـا هزت نفسى أهازيج العندليب . ولطالمـا وجدتها تفيض قوة وايمانا بكفاحنا وحياتنا الجديدة ، ولذلك فانى لمغتبط ان أقدم للشباب فى أنحاء الشرق بأسره هـذه المجموعة من أناشيد العندليب ، رجاء أن يجدوا فيها غذاء روحيا لنفوسهم المتأججة ثورة وقـوة » .

أما الدراسة الضافية التى كتبها الأستاذ محمد صبيح فقد عمدت الى تحليل شعره وموسيقاه المتراوحة بين الصخب والهدوء وفقا لطوابع قصـائده .. ثم يفطن الى التوافق بين طبيعته انسانا ، ونزوعه شاعرا الى ان يقول :

« والعندليب ليس شاعرا يدعو للتضحية وهو فى مؤخـرة الصفوف كالكثيرين من شعراء العصر الحديث .. لا .. وانما تقدم الصفوف وهو يتقدمها كلما دعـا الداعى وتعرض للخطـر ونزل

السجن • فكانت الأبراش والقضبان والزنازين وحيا لقصائد خالدة سطرها على جدران السجن مثل قصيدته « عندليب فى قفص » التى يقول فيها :

ياليت للقضبان ألسنة لكى
تروى بصدق ما ترى القضبان
وتسوق للصم الحديث مجلجلا
فتعى القلوب وتسمع الآذان
دنيا المجاهد ربوة فى سفحها
شوك وفوق هضابها ريحان

ثم يردف الأستاذ صبيح قائلا :

وهكذا يدرك القارىء دون حاجة الى بيان مسهب أن هذا الشعر يختلف فى اتجاهه عن شعر كثير يقال فى هذه الأيام •• هو شعر ثائر ثورة الوطنية المقدسة لا يعرف اسفاف الضعفاء الذين يسكبون قرائحهم فى كأس أو يسفكون دموعهم بين أيدى فتاة ، فما بكى العندليب وما أسف ، فهو القائل :

أنا شاعر الجيل الجديد اذا الظما
ما نالـه رويته بصداحى
ضمنت جدران السجون قصائدى
وكتبت فى أسقارها أمداحى

ورغم ما يتضمنه هذا الديوان من قصائد رائعة فى أغراض أخرى غير شعر الوطنية ، فاننى قد اخترت أن أتوقف عند هذا الجانب استهدافا لتكثيف الرؤية لمجاهد مناضل كانت مواقفه السياسية تطبيقا لؤيته الأدبية ، وكان ما يقوله شاعرا ينتهجه مجاهدا •

هكذا تكلم المجاهد

عندما نتوقف عند قصيدة « عندليب فى قفص » التى كتبها ابراهيم طلعت على جدران سجن التخشيبة نجد أنها كتبت غداة

اعتقاله بعد أن أطلق الشاب عز الدين عبد القادر الرصاص على سيارة الزعيم مصطفى النحاس فى نوفمبر عام ١٩٣٧ اعرابا عن سخط بعض الشباب المصرى على معاهدة ١٩٣٦ ، التى وقعها النحاس ثم الغاها بنفسه بعد ذلك ، مؤكدا أنه وقعها من أجل مصر والغاها من أجل مصر أيضا .. وكان عباس محمود العقاد أحد الذين قبض عليهم أيامها وقرأ القصيدة على جدران السجن وأعجبته . فأشاد بها بعد ذلك فى اجتماع سياسى عام .

ومما تجدر الاشارة اليه أن ابراهيم طلعت كان فى صدر شبابه من غلاة الذين يحملون على مصطفى النحاس . وان كان فى أواخر سنوات الحياة الحزبية فى مصر قبل ثورة يوليو قد غير رأيه فى هذا الزعيم الوطنى ، وأصبح من غلاة الذين يعملون خلف زعامته الوطنية .. ولعل حرصه على كرامة هذا الزعيم فى بداية ثورة يوليو كان من أسباب اختلاف طريقه عن الطريق الذى مضت فيه الثورة ، رغم صلته الوطيدة بها قبل قيامها وبعد قيامها .

ومهما يمكن من أمر فان القصيدة بعيدا عن مناسبتها تظل قيمة من قيم شعر النضال السياسى فوق اعتبارات المناسبة وملابساتها ، يقول ابراهيم طلعت فى هذه القصيدة :

لا السجن يرهبنا ولا السجان
ابدا ولم يعصف بنا الحرمان
والموت لا يخشى المجاهد بأسه
مادام يعمر قلبه الايمان
وحرارة الايمان فى قلب الفتى
يذكى لظاها العسف والطغيان

وفى قصيدة « ذكرى الشهداء » التى كتبها فى الذكرى الأولى لشهداء الجامعة الذين سقطوا فى عهد وزارة توفيق نسيم عام ١٩٣٥ يطالب بمواصلة الجهاد وحبس الدموع :

قد أصيبوا أمس فى ساح الفدا
واصابت مصرنــا المجد اليقين

فاحبسوا الدمع جــلالا واخشعوا
لا تضجــوا بعـــويل وأنــين

وابسموا كى يبسموا تحت الثرى
بسمة الهــازىء من سخط المنون

لأن هناك طريقا آخر غير الدموع ، هذا الطريق يرســم هو معالمـه فى قصيدة « الى الشباب » التى كتبها عام ١٩٣٥ اثر حادث شهداء الجامعة بعد مصرع عبد الحكم الجراحى وعبد المجيد مرسى وغيرهما من أعيان شباب الجامعة :

هلموا فانــا بدأنــا الجهـــاد
فأوفوا العهود وصـــونوا الذمم

هلموا نطهــر هــذى البــلاد
ونهتــك اســتار هــذى الظلم

ونقبس من روح عبد المجيـد
وننهــل من عزم عبد الحــكم

ما أكثر قصائد الوطنية والجهاد والدعوة الى النضال وتحرير الوطن من الاحتلال وتطهيره من العملاء ٠٠ بما يغطى كل الأحــداث التى تموز فى ساحة هــذا الوطن ، ابان المرحلة التى صدر الديوان خلالها ٠ وأختتم الحديث عن هذا الديوان الذى توقفت بك عند الجانب الوطنى ٠ فيه ، رغم ما يضم من قصــائد انسانيــة ذات اغراض أخرى ٠

أختتمه بأبيات أسوقها اليك من قصيدته « عهد مجــاهد » وما قالة فيهــا مصــداقا وتطبيقــا لجهــاده على مدى عمره ، واحدا من المنائر الشريفة التى تفخر بها مصر ، وتقــدم لشبابها القـــدرة :

هو العهد أن أحيا أبيا مجاهدا
وأحمل رأسى فى الحياة على يدى
وحسبى من الدنيا نصيب مجاهد
قنوع بما يأتى به الله فى غد

لقد وفى بوعده تطبيقا لما قاله من قبل فى ذات القصيدة :

اذا كانت العنقاء آمال أمة
سنأتيك بالعنقاء تلمس باليد

ابراهيم طلعت قصاصا

من الكتب التى وقعت فى يدى لابراهيم طلعت مجموعة قصصية بعنوان « دموع ودماء » تصدرتها قصيدة تقريظ للشاعر الأديب المؤرخ الأستاذ فخرى أبو السعود يقول فيها :

أنت يا طلعت فى عهد الصبا
زهرة تونع فى روض الأدب
لك نفس بالمنى حافلة
وفؤاد للمعالى مشرئب
همك الآداب تبغيها اذا
ما ابتغى غيرك لهوا ولعب
كل يوم لى تزل تبدهنا
بكتاب معجب بين الكتب

ويمضى فى تقريظه الى أن يقول أ

بك يا طلعت تعتز غدا
لغة الضاد وآداب العرب

وقد صدرت هذه المجموعة القصصية عام ١٩٣٥ . وتضم هذه القصص « الفيلسوفة ، ولقاء ، والأصدقاء ، والشبح ، وابنة الظلام » وتتسم بالرؤية الرومانسية لمشاكل المجتمع المصرى ، وقضايا العواطف كطابع قصص هذه المرحلة فى أغلبيتها ، ولكنها

مع هذا تتسم بالأسلوب القصصى الرائق والتشويق فى العرض ..
وأرجو أن تتاح لى فرصة مواتية لأعرض له قاصا ، عندما يتـاح
لى العثور على بقية مؤلفاته المعلن عنها فيما عرضنا له هنا من كتب،
بعد أن عرضت له شاعرا .

ويبقى بعد كل هذا أن الهدف من هـذا الحديث ـ بجـانب
هدفه الأساسى من اكتمال نظرة التقييم الى هذا المجاهد الشريف ـ
هو الدعوة الى تتبع الظاهرة السياسية فى حياتنا لمعرفة ما وراء
رجالها من خلفيات أدبية وفكرية وثقافية .

أحمد الصــاوى محمد

كاتب طوع الأدب لأسلوب الصحافة !

عندما قرأت نعي الأديب والكاتب الصحفي الراحــل أحمــد الصاوي محمد ·· انتابني ندم فادح ، فربما يكون هو الكاتب الوحيد الذي لم أشرف برؤيته والتعرف عليه على مدى مسيرتي في درب الكلمة قارئا وكاتبا ·· سواء بالمراســلة وأنا في الصــعيد او بعد مجيئي الى القاهرة منذ ثلاثين عاما ·· يلهبني الطموح هناك وهنا لأكون كاتبا يحقق الحلم المعذب الذي استقر في خلايا كيــاني منذ الطفولة ·· لأكون ضمن القافلة المــاجدة · التي تسكب قيم الحضارة وتشع اضواء الثقافة وتصنع واحات المعرفة ·· وتجعل الحياة ذات معنى وقيمة ·· لقد راســلت الكثيرين من أصحــاب الأقلام ·· وشرفت بلقاء الكثيرين ·· ولكنى لا أعرف لمــاذا لم أذهب الى الصاوى ·

المرة الأولى التى اقدمت فيها على مراسلته ·· كانت عندما تولى رئاسة تحرير « الأهرام » في بداية الخمسينيات وكنت وقتها متعصبا لمصريتى الى حد الجنون ·· وقتها غمرتنى المسرة وانــا ارى اول مصرى يتولى أمر هذه القلعة الصحفية ·· واســعدنى أكثر ان يكون هو الصاوى الاسم المتألق في دنيا الصحافة والأدب · كتبت اليه معربا عن فرحتى بهذا ·· وجاءتنى منه رسالة قصــيرة شاكرة ·· من طراز ما قل ودل ·· ودعانى الى مقابلته عندما أجيء الى القاهرة وكان المرة الأولى والأخيرة ·· وهأنذا أستشعر الندم كثيفا ·· فهو الوحيد من الذين قرأتهم وأحببتهم ·· الذى تجردت أيامى من أى ذكريات ذاتية معه ·· رغم انه أفعم وجدانى بقلمــه

فى مرحلة اليفاعة ٠٠ وكنت مفتونا به على قدر افتتناني بمحمد التابعي الذى كنت أكتب له وكان يراسلنى ٠

بداية لقائى بالصاوى كانت عن طريق ما يكتبه فى الصحافة السيارة ٠٠ حيث راق لى أسلوبه الذى جمع بين رشاقة التعبير وجاذبية التكوين ٠ والذى تخلص من تقريرية الأداء الصحفى المجرد ٠ وبين قدرات الأديب الذى يعرف كيف يستخلص من اللغة جمالياتها فى تعبير يجمع بين القوة والرشاقة وبين الانسيابية والتمكن ٠ فالجملة عنده مقتضبة ولكنها نفاذة لا يشوبها تركيب الأسلوب الانشائى الذى يهتم بالبيان قبل الفكرة ٠٠ والتكوين فوق المعنى ٠٠ فالعبارة عنده محددة بغرضها ٠٠ ولكنها مشعة تتناغم فيها الظلال والألوان وتحفها الأنداء العطرة ٠

وحتى الخامسة عشرة من عمرى ٠٠ لم أكن قد عرفته الا صحفيا بدون أن أدخل أعماقه أديبا ٠٠ كنت قد قرأت بعض أمهات كتب التراث من مكتبة خالى الراحل الشيخ أحمد محمد المولد أحد رجال الأزهر المرموقين وعضو هيئة كبار العلماء وأحد الذين رباهم ثقافيا الامام محمد عبده ٠٠ ثم قرأت كل كتب الأدب فى مكتبة الأمير فاروق بسوهاج ٠ ومن هذه المكتبة عرفت شوقى وحافظ وعبد المطلب ومصطفى المنفلوطى ومصطفى الرافعى والزيات وعبقريات العقاد وكتب طه حسين ٠٠ ومن خلال ما كانت تقرره وزارة المعارف على طلبتها التقيت بتوفيق الحكيم والجارم وأبو حديد ٠٠ وعن طريق أخى عرفت المترجمات الغربية ٠٠ عرفت أولا أرسين لبين وآل كابونى ورواكامبول ٠٠ ثم ريتشارد رايت وشتاينبك ودستويفسكى وتولستوى وتورجنيف وأسماء أخرى ٠٠ لعلى من خلالها دخلت منطقة الفن المحدد بعد أن كنت أسبح فى بحور الأدب المطلق ٠

وذات صباح كنت « أنكش » رزم الكتب المستعملة فى كشك عم عبده بائع الكتب القديمة فى شارع النيل بسوهاج ٠٠ واذ بى

التقى بثلاثة أعداد من مجلة ذات غلاف أحمر اسمها « مجلتى » وكانت قد توقفت عن الصدور منذ زمن بعيد • ودفعت ثلاثة قروش وتأبطت الأعداد ومضيت الى أخميم التهمها •• وكانت المجلة بأناقتها وورقها المصقول اللامع ولوحاتها الفنية ومادتها الأدبية المنوعة •• كانت شيئا مغايرا لما عرفته من مجلات أدبية مثل الهلال والمقتطف والرسالة والثقافة •• وكانت هذه الأعداد مدخلى الى أسماء جديدة بحثت عنها بعد أن قرأت فى مجلتى انتاجها •

وعرفت الصاوى أديبا من خلال هذه الأعداد المصقولة الأنيقة ذات الغلاف الأحمر المبهر • وسافرت الى القاهرة أنقب فى أكوام الأزبكية فأجد له كتابا من مدام كورى مكتشفة الراديوم •• وأبحث فى مكتبات القاهرة • فأجد له كتابا صغيرا فى سلسلة « اقرأ » يحكى قصة حياة المغنى الايطالى الأشهر انريكو كاروز وغرامياته ونزواته وأزعم انى قرأت الكتاب عشرات المرات •• فالصاوى من أصحاب الأساليب الجاذبة •• وكما بهرنى التابعى بأسلوبه فى « بعض من عرفت » و « ليلة نام فيها الشيطان » و « اسمهان » • كذلك بهرنى الصاوى بأسلوبه الذى يجمع بين سيولة التعبير وتلقائيته وأدبية العبارة المجنحة المتشكلة جماليا ، فلا انشائية يستهويها استعراض العضلات البلاغية وانما انسيابية يعنيها أن تصور وأن ترسم وأن تدخل وجدانك بكل الحواس التى حباك الله بها بدون عراقيل من الحفر البلاغية أو « دشم » الاكليشهات المألوفة • أسلوب له جدة واشعاع وطرافة •• وايحاء ورموز •• تجد معانيها فى داخلك •• لا بين القواميس • ثم وقعت فى يدى « تاييس » التى ترجمها عن أناتول فرانس •• قصة الغانية الرومانية التى تمرغت فى حمأة الشهوات والملذات وباعت نفسها للشيطان فى بؤر الرذائل •• وكانت تصم حواسها عن مواعظ الراهب الذى تاق لأن يرشدها الى طريق المسيح •• ومن خلال الحيوات والمشاعر نجد أنفسنا فى مواجهة الأزمة القدرية •• تاييس قررت التوبة •• والراهب قرر الانفلات •• هى اختارت عالم

الدير ·· وهو يريد أن يعانق الحياة ·· هى قادمة اليـه تعلن التوبة ·· وهو قادم اليها ينشد اللذة ·· قمة المـأساة التي جعلت من هذه القصة واحدة من أروع الروايات العالمية بين آداب الأمم ·
قرأت هذه الرواية بقلم الصاوى عدة مرات ·· ولفرط روعـة أسلوبه ورهافته وعمق تصـويره للمشاعر والنوازع والعواطف المتلاطمة ·· كنت ابلل صفحاتها بدموعي ·· انها قصة الصراع بين الروح والجسد ·· ومن فرط روعة أسلوب الصاوى كنت انسى انها مترجمة ·· واتعامل معها كأنها من ابداعه ·· واحسب أننى قرأت الرواية بعد ذلك من ترجمات أقلام أخرى · ولكن لم اهتز لها ·· كما هزنى الصـاوى وزلزل كيانى بجمال اسلوبه ونفاذه وتصـويره ·

ان أحمد الصاوى محمد من خلال « مجلتى » وكتبه والمواقع التيتولاها ·· يقف من أهم الأسماء التى جعلت الأدب جماهيريا بعد أن كان للخاصة · واحسب ان هذا أهم أدواره ·· حيث ارتقى بالصحافة الى مشارف الأدب ·· وطوع الأدب لأن يعانق الصحافة ويتشرب ايقاعها بدون أن يهبط الأدب أو تتقعر الصحافة · قلة هم الذين فعلوا هذا ·· كان الصاوى من أبرزهم !!

جـــلال الحمـــامصى

رجـــل فى بلاطهـــا !

منذ صغرى كان الراحل العظيم جـلال الدين الحمـامصى فى وجدانى أولا ·· بكتابته الصحفية الجريئة الشجاعة التى علمتنى قيم الكلمة ، وضرورة أن تكون جسـورا وشريفـة لا تتوخى غير الحقيقة · وهذا ما جعلنى منجذبا اليه باحثا عن كل ما يكتبه مكونا من خلاله وخلال غيره من الأقلام البليغة وعيى بالسياسـة ورجالها وتياراتها وأحوال مصر التى اعتنقتها ــ ولقد ظلت كتابات الحمامصى فى مختلف المراحل التى عشتها قارئا له من أحب ما أعشقه من مداد الأقلام التى ربتنى · كان رجلا حقيقيا فى بلاط صاحبة الجلالة المعبودة المعذبة ·· لا يحرق البخور لأحد ·· وانما يواجه الخطر ويتصدر العاصفة ·· ما وافق الا مقتنعا ، وما عارض الا مخلصا ·· وما ابتغى بالقلم جاها أو مأربا ، ولا استهدف الا وجه الوطن وشرف الكلمة حقا لا مزايدة ولا ايهاما ·

وظل حتى الى عمر لا يحتمل الهزات والأخطار فى مسـتوى المهمة التى انتدبه القدر لها كما انتدب كل الشرفاء · هذا ما جذبنى اليه أولا قارئا ·· وثانيا لأن الظروف شاءت أن يتشابه اسم عائلته فى تطـابق مع اسم العائلة التى أنتمى اليها فى الصعيد ·· ولمـا كنت احلم بالكلمة وأطمح لأن أكون من سدنتها فقد كان الناس يقدموننى فى ندوات الأدب ومحافل الخطابة بلقب « الحمامصى الصغير » ومنذ صغرى تشكل حلمى بأن أكون كاتبا مرموقا مثله ·· وعندما قدر لى أن أدخل دنيا الأدب وأن أحترف الصحافة ·· حرصت متعمدا الا أقترب منه حماية لنفس أردت لها ان تشق طريقها بجهدها بعيدا

عن نفوذ أحد ، ناهيك عن التمسح باسمه وقيمته أو الايهـام بأنى قريبه ·· ولكنه ظل قدوتى بدون محـاولة للاقتراب منه أو تقديم نفسى اليه ·· ولم أره على الطبيعة وأتعرف به الا مرة واحدة يتيمة فى معرض الكتاب ، وقدمتنى اليه الكاتبة الصحفية المعروفة السيدة حسن شاه ·

وتهلل الرجل مرحبا عندما رآنى ·· وفى غمار فرحتى بلقائه وجدتنى أعرب له عن الأسباب التى دعتنى الى عدم المجيء اليه منذ اشتغالى بالأدب والصحافة ·· وكان هـذا هو الاعتذار الحقيقى الذى أملكه ·· ووجدته سعيدا بما قلته مقدرا له ومتفهما ·· وقال لى وقتها ــ أمام الأديبة حسن شاه ــ كلاما لن أقوله حتى لا يظن البعض أننى من أصحاب مرض تورم الذات ·· كل ما يمكننى قوله أننى أعتز بهذه الكلمات واعتبرها أوسمه نلتها ·

وقبل ان ألتقى به كنت أحتفظ له بموقف بالغ النبـل ·· فعندما كنت أعمل فى دار الهلال فى مجلة الهلال وفتح لى فكرى أباظة ومرسى الشافعى وصبرى أبو المجد وفوميل لبيب صفحات المصور لأحاديث سياسـية وثقافية أجريتها مع الساسة والأدباء ·· سألنى الراحل العظيم فكرى أباظة ان كنت قريبا للحماصى الكبير وأجبت بالنفى ·· وما أكثر ما وجه لي هذا السؤال ونفيته للحقيقة قبل أي اعتبار ·· فقد كان هـذا شرفا لا يمكن أن أدعيه وليس تهمة أنكرها ·· من جهـة ·· ومن جهـة أخرى كان النفى اتساقا مع ما انتويته منذ بداية الطريق ·· اما أن أكون أنا ــ بكل محدوديتى وحجمى ــ واما ان أموت ·· أما ان أشق طريقا غير متوكيء على غير قلمى واما ان أسقط على قارعة الطريق ·· ما قيمـــة نفوذ يدفعنى ــ ان كنت تافها ــ ويعطينى ما لا أستحق ·· ما قيمتـه وكان شجارى ·· ما جدوى أن يكسب الانسان العالم كله ويخسر نفسه · وبعدها بأسبوعين تقريبا وجدت العظيم فكرى أباظة غاضبا

يقذف بالثورة فى وجهى ·· وهو يسـألنى لـماذا نفيت قرابتى لجلال بك ·· بينما أكد له هو عندما جاء ذكر اسمى بأننى قريبه !!

وشرحت للعظيم فكرى أباظة تفسيرى للواقعة ·· الأمر فى اعتقادى لا يخرج عن كونه موقفا نبيلا من جانب الأستاذ ·· فهو قد استشف من حديثك عنى أنك تهتم بأمرى وتحدونى بالتشجيع·· فأراد لفرط عظمته ألا يحرمنى من هذا أو يفتر منه اذا نفى أنه قريبى ·· واقتنع فكرى أباظة بوجهة نظرى وزاد من تشجيعه لى·· وفى اللقاء اليتيم الذى شرفت فيه برؤية الحمامصى سـألته عن الذى دعاه لذلك ·· فأجاب نفس اجابتى لفكرى أباظة ، وأضاف ما ـ بالتواضع الحق ـ لن أذكره ·

ورحل أستاذنا جلال الدين الحمامصى ·· ابن مصر ورجلها وقلمها ·· وسيظل اسمه كاتبا ورجلا محفورا فى ضميرها خالدا فى وجدانها ·· ماثلا فى ذاكرتها ·· كبيرا فى تاريخها !!

يوسف ادريس

عمدة القصة وأجمل فرسان الحلبة

فى ثراها المطهر الممتزج بطمى نيلها وعرق كل الأجيال التى تنفست فى أرجائها .. واعطت لما يسمى بمصر امتدادها وسيرورتها وصيرورتها .. واشعاعها الحضارى المتواصل المتالق رغم جحافل الغزاة التى حاولت ان تجهض أجنة نموها لولا نماذج من طراز يوسف كانت تنبرى فى كل العصور لتفشل المحاولة وتعيد لمصر قابليتها للولادة العبقرية والعطاء الخلاق .

فى ثراها احتضنت تربة مصر جدث يوسف ابنها وودعت الى رحاب الخالق الاعظم روحه — احتوته رمزا كان للتعبير عن خصائصها وضميرها .. وكان واحدا من قلاعها الثقافية التى كانت تواجه بها الدنيا لتقول هاأنذا مصر أرض الابداع المتأصل المتفوق والانجاب المتجدد المتطور .

رحل يوسف ادريس ابن الأرض الولادة .. التى لم تعقم أبدا فى مواجهة أهوال الأزمنة وتعاسات العصور .. أنجبته فكان التعبير الأمثل عن عقلها وقلبها .. رحل الفلاح الفصيح الذى ملأ الدنيا احتجاجا ومواجهة وموقفا واستنارة .. بابداعه الفنى المتنوع المركب .. وخطابه المباشر الموجه .. ولم يكتف مثل الفلاح الفرعونى الفصيح بمجرد الوقوف عند استرداد حقه المغتصب ولكنه بحث عن حقوق الآخرين .. حقوق كل المصريين .. قال لا .. قالها كثيرا .. رغم ضراوة ما تمثله مواقع الذين قذف بها فى وجوههم .. واذا كان أمين الريحانى قد طالب الكاتب بأن يقول كلمته ويمشى .. فان يوسف ادريس قالها .. قالها ووقف !! أليس كذلك ؟ وليس الموقف

هنا موقف استعراض لأحصى وأحدد .. وانما هى الأشجان فى موكب الرحيل !

واذا كان الكاتب .. الفنان والمفكر بطبيعـة تكوينه وبحكم الشعلة المقدسة التى أودعها الخالق فيه وتحفزها التجربة الانسانية على مدى العصور .. وانه خلاصة الوجدان الحضارى ومحصلته .. اذا كان بكل هذا يأتى ليكون ضد العالم .. ضد كل ما هو شائه فيه وقبيح .. وصولا الى ما ينبغى ان يكون .. تجسيدا للفارق بين ضديتين : ضدية المجرم الطاغية وضدية البانى الخلاق الذى يقف فى مواجهة السائد والمألوف .. بين ضدية كاليجولا ونيرون والحجاج وهتلر من ناحية والمعرى وتولستوى وجوركى وطه حسين من ناحية أخرى .

هكذا كان كل مفكر بناء وكل فنان خلاق منذ ان عرف الانسان الكلمة المبدعة لتكون مصباحه فى أدغال الحياة .. واذا كان الكاتب الروسى والمشـاغب العظيم فى هذا العصر مكسيم جوركى قد أعلنها صراحة فى وجه العالم كله محددا ضديته بقوله : « جئت الى هذا العالم لكى أقاتله .. » فان يوسف ادريس قد جاءنا ليكون تطبيقا لهذه العبارة وكان واحدا من القـلة التى تمثل مدلولها وأبعادها وتبعتها .. فى تاريخنا الأدبى الحديث .. سواء فيما كتبه مباشرة بمقالاته .. او فيما أعطاه ابداعا بقصصـه ورواياته ومسرحياته . نعم ان الشغب العظيم فى يوسف ادريس لم يكن قاصرا على كتابته الفكرية البحتة .. لأن أعماله الابداعية فى القصة والرواية والمسرح .. كانت شغبا خلاقا ضد التقليدية والمفاهيم السائدة .. تحقيقا لطرائق فنية يتجاوز بها المتاح انجازا للجديد فى الرؤية والأسلوب معا ..

ولأن الضدية كانت هذا الكيان الذى اسمه يوسف ادريس .. فقد عرفناه كتلة من الحساسية والتوتر تمشى على الأرض .. واذا كان الفيلسوف الألمانى نيتشه قد صرخ فى وجه الانسان « عش فى قلق » وكان يعنى بذلك القلق النبيل الذى يحفز الفكر ويشحذ

الضمير ويوهج الروح .. فان يوسف ادريس كان هو القلق ذاته .. فأنت لا تراه الا محتدما .. كأنما هو المســـــئول الأوحد من الكون كله .. حتى أن الذين لا يعرفون كيفية الوصول الى أغواره كانوا يجفلون من ســــــمات الجهامة فى نظراته على النقيض من الذين يعرفونه حقا ويتعاملون مع الطفل القابع فى أعماقه .. وربما يكون هذا القلق المحتدم المتوهج .. المحرق أحيانا له وللأخرين .. ربما يكون قد أوقعه أحيانا فى فخاخ التناقضات فى مواقفه وسلوكياته .. أفلم يكن انسانا ؟ .. وهل يمكن لفنان أن يتخلص من زخم بعض اللحظات واكتنافاتها .. ومراوغاتها !! ومهما يكن من أمر فلم تكن بعض تناقضاته سقوطا .. وانما هى مراوغات ، لحظات بعينها لم تعطه كل ما وراءها !!

وزاوية أخرى ــ والحديث ذو شجون ــ فهو بكل احتوائه للكون والوجود ومصر والعصر .. وبكل احساسه بالمسئولية عن هذا .. كان أيضا مشغولا بذاته .. لا يحب أن يكون عاديا أو رقما أو مجرد واحد فى القافلة .. وبفرط ما كابده وانجزه ليكون يوسف ادريس .. كان أحيانا ــ بكل ضخامة حجمه وامتلاء نظرته بهذا الحجم ــ يتصور أنه كل شىء فى مجال الأدب .. وأن كل شىء يبدأ من عنده وينتهى اليه .. وكان أحيانا يتحدث عن جيل الطموحات العظيمة وكأنه لا يرى أحدا فى الساحة غيره .. وأن الصورة ليس فيها سواه .. أو أن الذين فيها مجرد كومبارس حول طغيان نجوميته .. وهذا ما كان يجعله يهون من شأن انجازات مبدعه ومشهودة ومرموقة جاءت معه وبعده .. رغم أن أصحاب هذه الانجازات لم يتنكروا أبدا لدوره .. وكان يتصور أنه بذلك يدافع عن عرينه ويذود عن عرشه ضد ما يتوهمه اقتحاما ويراه غزوا .. الا أنه بعد ذلك كان يراجع موقفه ويصحح غلوه ويعترف لكل ذى حق بحقه .

الحديث ذو شجون ــ كما يقول مشاغب آخر عظيم رحل من دنيانا هو الدكاترة زكى مبارك ــ وأنا هنا أحاول أن أستجمع ولا أنوى أن أقنن .. أسوق انطباعا لا أدعيه نقدا .. ولكها رؤيتى وشهادتى

وصدقى مع نفسى ومع الحياة .. وفى الحقيقة حتى هذا التجميع للانطباعات لا يعطينى وأنا فى غمار لوعة الفقد كل الامكانية للاحاطة بدور يوسف ادريس فى أدبنا الحديث وتقدير مداه وتحديد منسوبه .. فلوعة الفقد ترين على كل شىء فى وتكاد تشل قدراتى حتى على بلورة الانطباع نقيا .. بكل ما يمثله يوسفنا فى وجودنا العام ووجودى الخاص .. لقد توارت من أفقنا فى العقود الأخيرة من هذا القرن مجموعة من المصابيح المشعة التى أضاءت ساحة الثقافة المصرية وبعضهم خلف فى قلبى ندوبا لا يمكن أن تلتئم مهما تعاقبت الأيام . فأنا ابن الحركة الأدبية المصرية تربيت فى حضنها قارئا ونموت فى رحابها كاتبا .. وليس هناك من أديب مصرى لم يكن لى أبا أو أستاذا أو صديقا . وهم بكل أجيالهم وبكل تياراتهم .. اهلى وعشيرتى .. وقبيلتى وعزوتى .. وعندما يغيب أحدهم أشعر بأنى أصبحت مهيضا !!

ويوسف ادريس كان يمثل لى أشياء كثيرة بمعطياته كاتبا .. واقترابى منه صديقا .. لقد سعيت اليه منذ بداية مسيرتى فى الدرب الذى نزفت على مداه عرقى ودمى .. وكان دائما يحنو على صمودى وكبريائى .. ويعرب لى عن اعتزازه بكونى لم أقع فى فكاك الاحتواءات .. رغم ما اكتويت به من لهيب المحـــــاور المتعصبة من كل الأطراف .. وكان هو أول من يبادر بالاتصال بى عندما يقرأ لى قصة تعجبه أو مقالا يروقه .. أو عندما يصدر له كتاب جديد .. وامتدت بيننا صـــــــداقة وطيدة لم تتجرد أحيانا من الأكدار .. ولكن الصفاء بيننا كان يمحو كل الأكدار والغيوم .. وكان كثيرا ما يعلن أمام الجميع عندما كان يأتى الى اتحاد الكتاب يوم انتخاب مجلس ادارته .. بأنه جاء خصـــــيصا لينتخب هذا الصعيدى .. الرجل .. ولست هنا فى مجال الفخار لأستعرض عبارات الاهداءات ـــ التى اعتبرها أوسمة ـــ التى كان يقدم لى كتبه بها .

وهاهو ذا الفلاح المصرى الفصيح الذى أذكى فينا طموح الكلمة الفنانة المريدة .. والكلمة الجسورة المواجهة .. ها هو ذا يرحل الى البر الثانى .. حيث المصير الحتمى الذى ينتظر كل من دب على هذه الأرض من أسودها وحشراتها .. من بلابلها وغربانها ..ولكنى أستشعر الضـــياع .. ولا شىء أمامى الا هذا الكيان الخارق الذى أبدا لن أراه .. كان — وهو فى الغيبوبة الأخيرة — لدى أمل كبير فى أن يجتاز غيبوبة مرضه .. برغم ما كان يتردد حولى من ترديدات حزينة بأنه انتهى لا مناص .. كنت أعرفه وأعرف عشقه العنيد للحياة وتشبثه بالمقاومة .. وكنت أعتقد بأن الشىء الخارق الغامض فى تكوينه .. هذا الشىء الشرس الذى مكنه من مواجهة الخطر سيقاوم ويعيده الينا .. ولكن قضاء الله لا مرد له .. ومنذ قرون موغلة فى القدم قالها كعب بن زهير :

كل ابن انثى وان طالت ســـــلامته

يوما على آلة حـــــدباء محمـــــول

وما أحسبنى بكل الأحزان التى تضغط على كيانى برحيله .. هذا الذى فجر فى قلبى من جديد كل جرح الفقد الذى سبقته .. ما أحسبنى كما قلت آنفا فى مستوى أن أقيم دوره فى حياتنا .. ما أحسبنى — وما أعجزنى — فعلى مدى أكثر من أربعين عاما .. كان يوسف ادريس رمزا متألقا يحيويه العبقرية المصرية .. ابداعا وفكرا .. منذ جاء بمجموعته الأولى « أرخص ليالى » ليكون انفجارا فى حركة القصة العربية .. وامتدت شظايا هذا الانفجار الى بقية فروع الأدب طموحا الى تجديد يوافق متطلبات العصر وارهاصات التغيير .. لم تكن المجموعة مجرد تحول أدبى .. بل جاءت اشارة الى طموح التغيير فى بنية الواقع الحياتى ذاتها .. وكانت ثورة يوليو تحاول استخلاص رؤيتها لمواجهة الواقع المصرى .. فتوافق الموقف فى جناحه السياسى وجناحه الأدبى انطلاقا للغد ..

وتوالت أبداعات يوسف .. وكان هو صاحب أكبر تأثير فى الأجيال التى كانت قبله والتى جاءت معه والتى تدافعت بعده .. وأصبح هو سيد القصة القصيرة وعمدتها فى أدبنا العربى الحديث .. ولم يتجمد عند تخوم الانفجار الأول .. كان يوسف مهموما على الدوام بالتطوير والاضافة وتعبيد الطرق غير المألوفة والمطروقة .. وحتى آخر مجموعة « العتب على النظر » كان أستاذا معلما .. ولم يترك علم القيادة يسقط من يده أبدا .. وبفرط عبقريته وحساسيته واحتدامه وتوهجه كان يحرص على أن يكون الرمز لكل تجديد .. فعندما تداعت اتجاهات التحديث بالشـــــرعية أحيانا .. وبالايهام البهلوانى أحيانا أخرى ، كان يوسف ادريس ينبرى دوما ليقول هاأنذا .. سيد الأصالة فى كل موجة .. فهو كما قلت .. فنان محتدم الوجدان متحفز الطاقات متأهب القدرات .. يعرف كيف يقرأ الحياة .. ولهذا جاءت أعماله الابداعية احتواء لقلب الحياة وعقلها فى ســـــياق متناغم الرؤية عميق الكشف .. واذا كان الكاتب الانجليزى الأشهر برنارد شو قد حدد مقايسه للرواية الجيدة بأنها تلك التى تعرف كيف تجد الطريقة للتعبير عن عقل الحياة وقلبها فى وقت واحد .. فان يوسف ادريس هو التعبير الأفضل لهذا التحديد فى أدبنا .. « أرخص ليالى » و « جمهورية فرحات » و « أليس كذلك » و « البطل » و « حادثة شرف » و « آخر الدنيا » و «لغة الآى آى » و « مسحوق الهمس » و « بيت من لحم » و «أنا سلطان قانون الوجود » .

وقد حملت هذه المجموعات سمات تطوره الفنى على مدى المسيرة منذ أن جاء ليكون تمردا على المفهوم السائد للواقعية السطحية بحثا عن واقعية بلا ضفاف .. حتى قبل أن يطلق جارودى هذا الشعار بحثا عن طريق أكثر رحابة للفن فوق تحديدات التعميمات المذهبية .. التى لا ترى الا من زاوية واحدة .

كان يوسف يقف فى طليعة الذين أدركوا قابلية القصة لاحتواء

ألحياة من خلال مناسيب الجزئية الواحدة .. واستطاع أن يفجر من هذه النوعية كل الامكانيات التى تكمن فى خصوصيتها — هذا الفن الجميل الصعب — ودوننا مجموعاته التى نصبته ملكا فوق عرش القصة القصيرة فى أدبنا العربى .

واذا كان موباسان فى اللغة الفرنسية وتشيكوف فى اللغة الروسية وادجار ألن فى اللغة الانجليزية .. واذا كان هؤلاء يقفون من أعمدة هذا الفن ورموزه فى الآداب العالمية .. فان يوسف ادريس .. لو وجد ترجمات واسعة لابداعاته القصصية — ودعونا من تلك الترجمات المحددة مهما تعددت والتى تقوم بها جامعات معينة أو جهات استشراقية محدودة الطرح والانتشار — ولو كانت لغتنا العربية لغة عالمية واسعة النفوذ الثقافى مثل بعض اللغات .. لكان لادريس تأثيره الواسع فى القصة عالميا .. ولأصبح علامة من هذه العلامات العالمية .. لا مجرد عمدتها فى الأدب العربى فحسب — وأعتقد أن هذا سوف يحدث يوما ما .. وليس تعصبا عشوائيا أن أقول بأن يوسفنا قد وصل بالقصة القصيرة فنيا الى أبعد مما أوصلها الذين يعتبرون رموزها فى الآداب العالمية .

ومادام الحديث ذا شجون .. فان هذا يثير شجنا آخر .. لقد طغت شهرة يوسف كعمدة للقصة القصيرة على تفوقه فى مجالات أخرى لا تقل أهمية فى حد ذاتها .. ومن خلال دوره فيها .. ولهذا لم يحظ دوره فى كتابة الرواية بالأهمية التى واتت شهرته فى مجال القصة القصيرة .. وهذا مرده الى النظرة الجاهزة التى لا تعانى الاكتشاف .. ولا تراجع اطلاق الأحكام غير المصحوبة بمستنداتها .. والظلم نفسه حاق بنجيب محفوظ عمدة الوراية العربية وسيدها، فمجال النظرة اليه قد اقتصر على كونه مبدعا روائيا فذا .. وأغفل دوره كواحد من بناة القصة القصيرة العظام فى أدبنا .

وأنا أعتقد أن يوسف ادريس فى مجال الرواية كان فنانا عبقريا أيضا .. ولم يكن روائيا عاديا أو مجرد رقم بين كتابها ..

حيث لا يمكن ان نحصى أشجار الرواية العربية بدون أن تبرز أمامنا شامخة رواياته « الحرام » . هذه الرواية الرائدة التى جاست ارضا لم تكن ممهدة .. تعبيرا عن فئة ضائعة فى الريف المصرى .. وهل يمكن كذلك عندما نتجول فى حقول الرواية العربية الا ان نتوقف لمشاهدة « العيب » التى كشفت من خلال التركيب الفنى عن المعنى الحقيقى للقيم .. او « رجال وثيران » التى عرت الخلل فى الحضارة الغربية المعاصـــــرة وابانت بأن قوانين الغاب والغلبة الوحشية مازالت تتحكم فى بنيتها رغم القشرة الحضارية المموهة .

يوسف ادريس فى عالمنا الادبى غابة متنوعة الأشجار والثمار .. ولكن مهما تباينت اشجارها وتنوعت ثمارها فكلها انبثق وتمدد من خلال كيان عبقرى اسمه يوسف ادريس .. احتوى الوجود والتاريخ والعصر والانسان فى رؤية رحبة متعددة الامكانية .. ومن خلال الحديث عنه بتنوعه وتعدده ينبرى التساؤل .. لماذا اتجه يوسف ادريس الى المسرح ولم يكتف بموقعه فى القصة القصيرة والقصة الطويلة ؟ هل هى نزعة ن يكون النجم فى كل المواقع وكل الساحات .. ؟! لقد حاول يوسف تحويل بعض قصصه القصار الى مسرحيات وهى « جمهورية فرحات » و « المهزلة الأرضية » التى نجد أصولها فى قصـــــته « فوق حدود العقل » من مجموعة « لغة الآى آى » و « الجنس الثالث » التى اعتمدت على فكرة قصته « هى » من مجموعة « بيت من لحم » .. وقبل الاسترسال فى الاجابة عن السؤال لماذا اتجه الى المسرح .. دعنى أعترض سياق الموضــــــوع لأقول لك .. ان هذه القصص — التى حاول تحويلها الى مسرحيات ونجح فى ذلك — تؤكد قيمة القصة القصيرة فى ابداعات يوسف .. فهى — القصة القصيرة — تحمل عنده كل العناصر الفنية والحياتية التى تجعلها ذات قابلية مطواعة لتحويلات أخرى وبشروطها برغم جزئيتها المحددة .

واعود الى التساؤل .. فأقول ان النظرة القاصرة قد ترى أن النزعة الذاتية فيه نحو النجومية قد دفعته لأن يقتحم كل المجالات

اثباتا لوجوده .. وتاكيدا لتفوقه .. ليكن .. وهذا مشروع وطبيعى .. وهل هناك كاتب لا يحب ان يكون كذلك .. ولكنى أرى أن يوسف ادريس الذى عاش دائما فى اشتباك مع الكون وفى حوار مع كل الاشياء .. قد اراد ان يوسع من قاعدة معاركه مع الحياة .. فهو كان يدرك أن المجموعة القصصية والرواية .. والكتاب بشكل عام له جمهوره المحدود . أما المسرح فهو الجمهور ذاته .. وأنه هو الحياة .. وهو العالم .. وقد اراد يوسف أن يمتد بجمهوره وموقعه اتساقا مع نزعة الحوار المتأصلة فيه .. وعلينا أن نتذكر مقولة جوركى التى وردت فى بداية هذا الحديث .

ومهما يكن من شأن التقييم لمسرحياته فلا اشك انه قد أحدث فى المسرح تأثيرا واسعا وعالج هموما مصرية وحضارية كبرى .. ولا يمكن أن نغفل أن « الفرافير » كانت من علامات المسرح المصرى .. فقد جاءت تأصيلا لمصريته بحثا عن اطار يجمع بين الموروث والوافد .. ناهيك بطرافة موضوعها وجدبته فى حد ذاته .. وهذه النزعة نفسها للامتداد بقاعدة تأثيره هى التى دعته الى كتابة المقالات المشاغبة المتوهجة اشتباكا واسعا مع الحياة .. كأنه المسئول الأوحد عن الوطن بكل ما فيه والعالم بجماع محتواه .. وتلك فى الحقيقة مهمة الكاتب وقد أنجزها يوسف حتى آخر كلمة كتبها قبل أن يرحل هذا الفلاح العبقرى الفصيح الى البر الآخر .. بعد أن سلمنا وثائق خلوده .. وما اكثرها ..

والحقيقة ان اتجاه يوسف الى كتابة المقالات المباشرة لمواجهة الواقع يحتاج الى وقفة لم تحدث حتى الآن، ومن الظلم الا تعتبر هذه المقالات المتوهجة بوعى الرؤية وخصوصية التوصيل ابداعا .. والا بماذا نسمى نقدات الجاحظ وتجليات المعرى غير الشعرية .. وكتابات فولتير ومقالات سارتر .. وحتى اذا سلمنا فى احترام بالتقسيمات التى جاءت نتيجة تحديد المعالم الادبية بعد المستحدثات والتقنيات التي جاءت بها الأنواع الأدبية التى لم تكن معروفة ..

فان هذه المقالات التى كتبها يوسف لم تكن عنده بديلا عن الابداع الفنى ، بل كانت تعميقا من جانب آخر لموقفه مبدعا .. وجاءت اتساقا مع نزعة الضـــــدية فيه وغلبتها على تكوينه القلق البارز المقتحم المواجه .. وبكل المقاييس لم يكن واحدا من الذين يملأون الصحافة ثرثرة .. كان فكرا واسلوبا ومذاقا ورائحة .. وكانت مقالاته التعبير الأوسع عن وقوفه على الشاطىء الآخر .. رافضا المسارية فاضحا كل المحاولات الشيطانية لاغراق العقل المصرى فى متاهات الغيبوبة .

لو أطلقت العنان للشجون فلن أتوقف .. رغم أن لوعة الفقد تشـــــل طاقاتى .. فلأتوقف .. واذا كان الموت قد أخذه منا .. فسيظل ما غرسه فى أرضنا باقيا .. وحيا وسيتجدد فى ضمير كل الأجيال خلودا لفارس أنجبته هذه الأرض ولم يترجل عن فرس المقاومة الا بالموت .

جمـــال حمـــدان
ناســك الفكر .. رافض الصخب

فى غمار ترديات انتكاسية فادحة تترصد حركة التنوير الفكرى وتحاصرها .. ويتجرع كل مثقف مصرى شريف علقمها .. وهو يواجه هذه الرديات ويشاهد اندياحها أمامه يغرق ساحة المجتمع ويجرف العقل الى بؤر المياه الآسنة الراكدة لتفتك به جراثيم الرؤى المتخلفة والمتعصبة .. وأصحاب هذه الرؤى لا يكتفون بها لأنفسهم .. وانما يحاولون غرضها على الآخرين باشهار الخطر .. ولهذا تتنادى التراجعات وينتشر الوباء ، ويلجأ بعض أصحاب الأقلام — المفروض أن تكون أمصالا لمقاومة المرض ومحاصرة العدوى — الى التقية والمدهنة .. أو الصمت والمسايرة !!

فى غمار هذا تفاجأ حركة الثقافة المصرية .. بأن رخ الموت قد انتض تباعا ليختطف من ساحة الفكر التنويرى بعض الرموز الماجدة والتى كان وجودها فى الساحة يخفف من صـــاب العلقم ومرارة الاحبــــاط .. لكونها كانت تمثل وثائق نزعة الضـــمير الحضارى المصرى الى التقدم والتحديث والاضافة .. وكان وقوفها يصنع القدوة الجاذبة لمواصلة المســـيرة نحو الغد مهما تداعت جحافل الارتداد .. ولهذا يفجر رحيل هذه الرموز تباعا الاحساس بمخاوف الجدب القادم .. وكان آخر الذين فجع الضمير المصرى الحضارى برحيلهم فى غمار هذا المناخ هو هذا المفكر العظيم الماجد الدكتور جمال حمدان .. الذى انقض الموت ليختطفه بلا مقدمات أو مؤشرات من شيخوخة او مرض وبطريقة مأساوية جســـمت عبثيتها أحزان الفقد .. ان هذا المفكر يقف فى تاريخنا شاهدا حيا

(*) كتب هذا الموضوع عن رحيله علم ١٩٩٣ .

علّى اصالة العبقرية المصرية التى أعطت جماع وجودها وذوب عمرها للعلم الخالص المجرد من المطامع .. لقد تنسك هذا الرجل الفذ فى صومعته .. معتزلا الصخب .. راغضا التقاتل حول منصب أو التكالب حول وجاهة .. مترفعا على الدنايا والأغـــــراض .. والاعراض .. وترك الجامعة ليفترغ لعلمه متأبيا أن يعرض كرامته فى حلبة الصراع أو المساومة .. ولم يكن لديه من ضمان الا قلمه وعلمه وطموحاته الخلاقة التى انجزت أروع موسوعة استخلصت شخصية مصر الفذة وبلورتها بوثائق العلم لا تهويمات العاطفة .

واذا كان تاريخ الثقافة العربية قد عرف بعض النساك العظام الذين تجردوا من أى طومح ذاتى وهم ينفقون أعمارهم من أجل اضاءة الطريق مثل أبو العلاء المعرى الذى اعتزل العالم فى محبسه الاختيارى ، ومثل الجاحظ الذى اختنق تحت ركام كتبه واضابيره ، فان تاريخنا المعاصر لم يعرف راهبا فكريا مثل الدكتور جمال حمدان الذى تأبى على صراع التفاهات والمناصب وأضواء الوجاهة وهالات الشهرة ليتفرغ لعلمه وكتبه التى تقف من علامات الثقافة المصرية المتفوقة والمتوهجة فى النصف الأخير من هذا القرن .. بدون ان يسعى الى موقع يعادل قامته .. وحتى الجوائز التى نالها مصريا وعربيا جاءته صاغرة تطرق بابه .. وتشرفت به أكثر مما تشرف بها .. لأن أوسمته كانت عبقرية كتبه وحدها !!

رحم الله هذا المفكر الخلاق الذى رزئت مصر بفقده .. وكان واحدا من الذين تقول بهم هأنذا أرض العطاء المضىء والخصوبة المتجددة .. وان ما يحدث فيها من ممارسات التردى ليس فطرتها .. وانها بثور طارئة تنفثها شياطين من وراء الحدود ممن لايريدون لها أن تصنع حضارة .. ولا أن تكون رائدة .. لأن عافيتها هى التى عصمت الاسلام من الخطر .. وردت كل الغزاة عن ديار الاسلام وأرض العروبة .. ولهذا علينا ان نفهم هذا الذى يحدث وان نحدد مصدره .. وسيظل ما أعطاه جمال حمدان وزمرته من العباقرة عاصمها لمصر من خطر التردي .. والله يرحمه ويرحم مصرنا ! ..

أبو القاسم الشابى
نعم سيعيش رغم الداء والأعداء !

تهل علينا فى هذه الأيام ذكرى مرور ستة عقود من الزمان على رحيل شاعر الوجدان العربى فى هذا القرن أبو القاسم الشابى .. الذى غيبه الموت عن دنيانا فى عام ١٩٣٤ .. ولم يزد العمر الذى تنفسه فى هذه الدنيا على ربع قرن من الزمان !!

وما احسبنى أكون مبالغا .. عندما أزعم بأنه رغم كثرة البلابل الغريدة التى غنت فوق أفنان دوحات الشعر العربى ورياضه فى هذا العصر قبل مجيئه وبعد رحيله .. فانه ليس هناك ثمة شاعر اهتز له الوجدان العربى بعد أحمد شوقى .. قدر اهتزازه لأغنيات هذا الشاعر التونسى .. الذى ومض فى الأفق مبشرا بكثيرا من الضياء .. ولكن الموت باغته فخنق الاحتمال .. وان كان لم يستطبع أن يطفىء الوميض الذى اخلفه وراءه .. وظل هذا الوميض يدفع غيره الى التجويد واحتذاء الطريق مهما تباينت الرؤى واختلفت المعابر !

نعم .. من الحق أننا حلقنا فى أفاويق الشاعرية المجنحة المقتدرة مع الأخطل الصغير وايليا أبو ماضى وعمر أبو ريشة وتجليات المعلوف وجبران وابراهيم ناجى وطاهر زمخشرى وعلى محمود طه وزكى أبو شادى والجواهرى والرصافى والزهاوى .. وبقية القافلة الشاعرة من اجيال مختلفة .. ولكن الشابى كان نسيجا وحده .. كان غريدا متفردا فى نقاء صوته وآفاق تحليقاته وانسياب شاعريته بغير تكلف وبدون تهويمات أو نتوءات تعترض مجرى الانسياب الطبيعى كغدير بلا أحجار فى مجراه .. وكنا نحس

فى شعره ذوب روحه مترقرقا فى معانيه وقوافيه .. التى تجاوب معها وجدان امتنا فى آهاتها القومية واشجانها الفردية .. حيث تنطلق جميعا من كافة الاجيال ومختلف الاتجاهات لترديد شعره عندما تجرفنا هموم الأوطان وعندما تجتاحنا مواجد الذات .. وأحسبه ـ واثقا ـ سيظل ماثلا فى وجدان أمتنا مشرقا ومغربا لآماد طويلة قادمة باعتباره الشـــــاعر الذى لا اعتراض عليه من كافة الأجيال والأذواق .. منذ أن فاجأنا بقصيدته المحلقة المتفوقة « صلوات فى معبد الحب » التى نشرتها مجلة أبولو .. لتكون معبرا الى مرحلة جديدة من شعر الوجدان العربى .. ويومها هتف الجميع مع أحمد زكى أبو شادى .. ها قد جاء شاعرنا .. قال أحمد زكى ابو شادى « هذا هو الشعر الذى نشدناه ونشده من قبلنا فضلوا الطريق وضللنا . حتى ظفر بل الشابى وحده من دوننا » !

وقد تكون فرحة الاكتشاف قد أوقعت أحمد زكى أبو شادى فى بعض المغالاة .. ولكن الذى لا شك فيه أن القصيدة قد دخلت الوجدان العربى بلا حواجز .. وانطلق عشاق الشعر يرددونها تعبيرا عن خوالجهم ويلهجون بأبياتها المنسابة فى عذوبة صافية :

عذبة أنت كالطفـــولة كالأحـــلام
كاللحن كالصـــــباح الجـــديد

كالســـاء الضحوك كالليلة القمراء
كالــــورد كابتســـام الـــوليد

يالهـــا رقة يـــكاد يرف الـــورد
منهــا فى الصـــخرة الجلموود

اية بساطة واية عذوبة يكمن خلفهما العمق والتشكيل يتبديان لنا فى هذه الابيات وفى بقية القصيدة وفى كل أشعار الشابى بعد ذلك .. بما نصبه أميرا للشعر الوجدانى العربى قوميا وذاتيا .. وما جعله معبرا لمتغيرات كثيرة حدثت فى قوام الشعر العربى بعد مجيئه .

ومما يكثف أشجان الذكرى التى تمر بنا فى هذه الآونة .. احساسنا بمدى ما كان يمكن أن يعطيه هذا الشاعر العبقرى ضوء المبهر الذى أعطاه بدون أن يمهله القدر لمواصلة التجويد والاضافة اقتحاما لآفاق أخرى .. لو كانت قد أتيحت له مساحة أطول مما أرادها له القدر فى دنيانا .

فالشاعر الذى هتف أمامنا :

سأعيش رغم الداء والاعداء
كالنسر فوق القمة الشماء

هوت به يد الموت من فوق القمة الشماء .. ولكنه رغم هذا كان صادقا .. لأن ما اعطاه لنا سيجعله حيا فى وجدان هذه الأمة .. ماثلا أمامها كالنسر فوق القمة الشماء !!

ولكن مما يثير الأسى اضافة الى احساسنا بمدى ما كان يمكن أن يعطيه أو لم يعاجله الموت .. ان ذكراه والتى كان من المفروض أو المنتظر ان تحتفل بها الأمة العربية فى كافة أصقاعها مشرقا ومغربا .. قد مرت بنا صامتة الا من هذا الاحتفال الذى اقامته فى فاس بالمغرب مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين .. حيث كان الشابى هو المحور الفكرى الذى يصاحب جوائز المؤسسة لهذا العام واذا كانت المبادرة تستحق الاشادة والامتنان .. لا ان هذا الصنيع المشكور .. لا يمكننا أن نتجاوز به عن تقصير محافلنا الأدبية فى كل حواضر هذه الأمة !!

د. علـى شـلش
القلم الجاد والأخـلاق المتحضرة !

وسط ترديات سلوكية تشوه محيطنا الأدبى من جميع أقطاره حيث لا شىء غير الشتائم والادانات والاتهامات وتشنجات الغوغائية التى يغيم فى صخبها أى حوار موضوعى متحضر .. كأننا فى شادر سمك .. لا فى محراب أدب ! وحتى لا ألقى الكلام على عواهنه فاقرءوا ما تمتلىء به صحفنا مما لا يتيح لنا هذا الحيز استعراضه واستخراج واقع الحال من سطوره حيث الأهواء والأحقاد وتصفية الحسابات .. ووسط كل هذا يتوارى الأدب الحقيقى .. وغـدا الأمر مجرد « ردح » وخناقات وملاءات مفروشة على قارعة العواميد والزوايا والأركان .. ولم يعد للجمهور دور غير أن يتفـرج على خيبة الأمل التى تركب الجمل .

ورحم الله أياما كانت الجمـاهير فيها تتخاطف قصـائد شوقى .. وكانت كتب ومقالات طه حسبن والعقاد والزيات واحمد أمين وسلامة موسى هى مدار النقاش فوق المقاهى والمنادر وقعدات البيوت وكان كل قارىء مستنير يطوف بالقرى والنجوع والمدارس ليوزع نسخا كتبها بخط يده من « مواطنون لا رعايا » لخالد محمد خالد أو من قصيدة « من اب مصرى الى الرئيس ترومان » للشرقاوى ومن « المعذبون فى الأرض » لطه حسين .. رحم الله هذا العصر .. أما الآن فالأدب شعوذات وطلاسم وحساسيات وحداثيات والكل يشـكو من غيات التنوير « الله ينور عليهم كما وكمان » وهذا ما دعا بعض الذين كانوا ينغمسون فى نشاطات الساحة الثقافية

(*) كتب هذا الموضوع اثر وفاة على شلش عام ١٩٩٣ .

باعتبار ذلك رسالة يعلنون انسحابهم احتجاجا على ما يحدث وصونا لكرامتهم من الأوحال التى تتناثر الآن فى كل المواقع ، ومن الحق أن البذاءات والادعاءات والتورمات والتوهمات كانت موجودة فى كل عصر .. ولكن الأمر لم يكن بهذا السوء الغالب .. وكانت الساحة تطرح حنطة وتعرف كيف تخلصها من الشوائب والتبن والزوان ، وكانت هناك واحات من رموز أدبية شامخة ونبيلة يلجأ الى ظلها الشرفاء والأنقياء عندما تكربهم الأحوال فيجدون تسرية وأمنا ، ولكن حتى هذه الواحات اندثرت وغيبها رحيــل هذه الرموز وانعزال بعضها .. ولم يعد هناك الا البغاث والحشــرات التى تلدغ أكثر مما تفرز شهدا .. وغدت لساحة نهبا للبراغيث التى تتطاير والهوام التى تطن والغربان التى تنعق .. بدون انتاج أى شىء حقيقى يخصب التربة ويواجه الترديات الفكرية والسلوكية التى توشك أن تعصف بأمن مصرنا المحروسة حماها الله من ناس هذه الأيام من كل الأطراف .. وحتى عندما تجود الساحة بحنطة وعندما تتحرر بعض البلابل لتغنى يضيع صوتها فى الصـخب وتحاصـرها غوغائية الضجيج الأجوف .

ووسط هذا المناخ انقض بغتة طائر الموت ليتخطف واحدا من الرموز المشعة التى كانت تحاول بكلمتها البدعة والمفكرة وبسلوكها الحضارى أن توقف طوفان الغوغائية كلمة وسلوكا .. فقد كان على شلش الذى باغتنا الموت باختطافه وهو فى أوج تألقه ليضيف للغم الذى يغمر المخلصين حنظلا سيعمر مذاقه فى الحلوق طويلا .. كان على شلش هذا الوديع فى مظهره والمحتدم داخليا بهموم قومه وقضايا الثقافة من الجادين الذين اختاروا الأدب مصيرا .. واعتنقوا العروبة والأدب نهجا يعادل الحياة ذاتها .. نعم سقط صاحب القلم الجاد واللسان العف والسلوك المترفع عن الدنايا والصغائر والأحقاد بعد أن جاهد منذ أواخر الخمسينات بعطائه ومشـاركته فى الندوات والتجمعات والمحافل بكفاح لا يتوانى وعزيمة لا تهادن فى اخصاب التربة بابداعاته ومتابعاته النقدية وترجماته من الآداب الأخـــرى

وتراجمه عن الشخصيات الادبية العربية والعالمية وابحاثه حول الماسونية واليهودية وجذور النهضة الادبية فى الصحافة والتيارات والكيانات الفردية والجماعية .. وكان فى كل ما يخطه موضوعيا ومنصفا لا تعنيه الا الحقائق من خـــلال فكر متوهج يعـرف كيف يستخلص ويقيم .. ومن خلال ثقافة واســـعة تتيح له التقنين والتحليل .. وقد تألق انتاجه فى السنوات الأخيرة وازداد حنكة ونضجا وتوهجا بعد أن أتاحت له جولاته فى أمريكا وأوروبا والعالم العربى أن يصقل موهبته وأن يثريها بمصادر متعددة .

عرفت هذا الكيان الجاد الوديع النبيل الذى اسمه على شلش منذ الخمسينات وتقاســـمنا خبز الوطن وملحه وقروشنا الكادحة النادرة .. كنا مجموعة من الحالمين المفلسين يملأون جنبات القاهرة وشوارعها ومنتدياتها ومقاهيها ..ويتوهمون أنهم سيغيرون الدنيا بقصص يكتبونها وقصائد ينظمونها ومقالات يدبجونها .. واقصى مسراتهم أكلة سمك فى شارع عبد العزيز أو طبق مكرونة بالباشاميل فى شارع عماد الدين عندما يقبض أحدهم ثمن قصــــة أو قصيدة مترجمة نشرها فى صحيفة « المساء » او أذاعها فى البرنامج الثانى . او ان يعزمهم عبد المعطى المسيرى ابوهم الدمنهورى الطيب على صينية سردين مشوى تعرف زوجه الحانية كيف تطهيه لتشـــبع بطونهم التى هراها الفول واقرحتها أقراص الطعمية .

كان يأتينى فى مجلة العالم العربى فى غرفتها المقبضة فى شارع الجمهورية ليجد الصـــحاب فى انتظاره أو فى مجلة الفكر العربى التى كان يصدرها الناشر صلاح نور واتولى تحريرها مع سامى خشبة وشوقى خميس وسيد خميس ومحمد جاد الدسوقى فهمى .. ثم ننطلق نهارا وليلا فى أرجاء القـــاهرة وراء الندوات وتجمعات المقـــاهى كنا مجموعة من الكادحين ـــ أغلبهم الآن من المشاهير نقتات أدبا ونتنفس أدبا ونصدر الأحكام ونطلق الأوصاف ولا يعجبنا العجب « ولكن أوعيتنا كانت مليئة بالثقافات والأفكار .. فلم يكن احتدادنا ثرثرة .. ولا حماسنا ادعاء .. » وكان هو بوداعته

ورزانته وموضـــــوعيته يحاول أن يكبح جموح بعضنا ويحاول أن يعلمنا التسامح فى وجه ظواهر كانت لا تروق لنا والتريث فى ادانة الناس بغير أن نعرف ظروفهم والضغوط التى تضطرهم لأشياء نراها لا تغتفر .. واذكر أننى كتبت فى مجلة الشهر « التى كان يصدرها أديبنا الكبير سعد الدين وهبة » مقالا عنيفا ضد شاعر نشر فى احدى الصحف الكبرى بالاشتراك مع زميل له قصيدة مطولة فى مدح ثرى عربى ونشرتها الصـــــحيفة كاعلان مدفوع الأجر من فلوس هذا الثرى .

وكانت كلماتى قاسية وجاءنى على شلش يومها فى كازينو أوبرا حيث نتحلق حول نجيب محفوظ .. وانتحى بى جانبا ليؤنبنى على قسوتى على شاعر .. عرفت أن الفقر والعوز اضطره لذلك .. وكان على أن أدين الظروف التى تضطر شاعرا لهذا الانحناء أمام المليونير فى لحظة احتياج .. ومن يومها تعلمت أن أدين الأوضاع قبل إدانة الأشخاص .

لقد عرفت على شلش فى أقصى لحظات حياته كربا وعوزا ، ولكنى رأيته عفا وأبيا لا يتبذل ولا يستجدى وكان أحيانا يذهب من الجيزة الى مصر الجديدة ماشيا ولا يجرؤ على أن يقترض من صديق ثمن التذكرة .. ورغم هذا لم يتصـــعلك فى سمته ولا ملبســـه .. وظلت جاكتته الشاركسكين البيضاء مكوية دائما ونظيفة .. وكان يبغض القبح سلوكا ومظهرا .. لأن ســـريرته كانت فى نصاعة مظهره .. وكافح على شلش وهو يقتات من عرق قلمه حتى أصبح رمزا مرموقا من رموز الثقافة العربية .. واغترب ليكون سفيرا من سفراء الأدب العربى فى الجامعات والاذاعات الأجنبية ، وليتصدى للمغالطات ويفندها .. واذا كانت تراكمات المكابدات التى عاناها على مدى عمره قد انفجرت فى لحظة لتودى به اثر ســـكتة قلبية مفاجئة .. فسيظل على شلش فى حياتنا رمزا لكل ما هو جاد ونبيل وجميل .

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٧٥٦٩
I.S.B.N. 977 — 01 — 4880 — 6







بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦





مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب